

بيير بورديو

عن التليفزيون

وآليات التلاعب بالعقول



ترجمة وتقديم

درويش الحلوجى

بيير بورديو

عـــــن
التليفزيون
و
آليات التلاعب بالعقول

ترجمة وتقديم

درويش الحلوجي

الطبعة الثانية
٢٠١٢
المحروسة للنشر والمعلومات

الطبعة الثانية يونيو ٢٠٠٢

هذه ترجمة لكتاب :
ise du journalisme
تأليف بيير بورديو PIERRE BOURDIEU
ترجمة درويش الحلوجي DARWISH EL HALWAGY

الناشر: مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر
٤ ش ٩ ب المعادى - ج.م.ع
ت: ٣٧٥٢٠٣٣
بريد اليكتروني mahrosa@hotmail.com

صدرت الطبعة الاولى فى يناير ١٩٩٩
بالتعاون مع المركز الفرنسي للثقافة والتعاون

المدير العام: فريد زهران

عن التليفزيون
وآليات التلاعب بالعقول

تقديم الطبعة الثانية

هكذا تكلم بورديو !

أثار رحيل عالم الإجتماع والمفكر الفرنسي الكبير بيير بورديو فى الثالث والعشرين من شهر يناير الماضي ردود أفعال كثيرة جدا ليس فقط فى فرنسا ولكن فى جميع انحاء العالم . فى عددها رقم ١٤، مارس/أبريل ٢٠٠٢، كتبت مجلة اليسار الجديد New Left Review " بموت بيير بورديو فقد العالم أكثر علماء الإجتماع شهرة، كما فقد اليسار الأوروبي اكثر الأصوات المؤثرة على حركته والمعبرة عنه خلال العقود الاخيرة".

كان بورديو دائما منتميا الى اليسار، منذ انخراطه العملي بجانب ألتزامه الفكري فى سنوات الخمسينيات والستينيات وحتى تحوله الراديكالي فى أوائل التسعينيات عندما ركز بشكل رئيسي على نقد الليبرالية الجديدة ونتائجها الكارثية على الإنسانية وكان العمل البحثي الكبير الذى اشرف عليه "بؤس العالم" تعبيرا عن هذا التحول الراديكالي. ربما يكون بورديو هو آخر المفكرين الكبار الذين تركوا بصماتهم الفكرية وأثروا بشكل عملي على الحركات الإجتماعية والسياسية التى شهدها النصف

الثاني من القرن العشرين. لم يكتف بورديو بإنتاجه الفكري الغزير والمتميز، لكنه جسد الافكار والمبادئ التى توصل اليها فى اعماله الفكرية الى ممارسات عملية من خلال مشاركته الشخصية فى المظاهرات والحركات الإجتماعية والسياسية مباشرة. لم تشهد اوروبا منذ رحيل جان بول سارتر وبرتراند رسل وميشيل فوكو مفكرين من هذا الوزن الكبير ممن جمعوا بين الإنتاج الفكري المتميز والممارسة النضالية العملية لدعم القضايا والمبادئ التى دعوا اليها ودافعوا عنها فى التطبيق العملي، كان بورديو آخر مثال على هذا النوع من الشخصيات الإستثنائية النادرة. قدم بورديو دعما فكريا كبيرا لحركة الإضرابات الكبرى التى شهدتها فرنسا فى نوفمبر من عام ١٩٩٥ ضد سياسات حكومة جوبيه التى اسفرت عن سحب الحكومة للقرارات الإقتصادية التى كانت تستهدف مزيدا من الضغط على الطبقات والشرائح الإجتماعية من العمال والموظفين وفئات الطبقة الوسطى بشكل عام. بعد نجاح حركة الإضرابات فى الغاء القرارات وإستقالة حكومة جوبيه، طور بورديو من رؤيته لهذا التزاوج بين دور الفكر الملتزم بقضايا الإنسان وبين الممارسة النقدية فى مواجهة الموجة الصاعدة لليبرالية الجديدة فانشا شبكة من الجمعيات والمنظمات الإجتماعية والثقافية التى احتلت مواقع قوية على خارطة

العمل السياسي / الإجتماعي والفكري في المجتمع الفرنسي. نذكر من بين ذلك " " ، (عقول في الفعل)، كما كان المحرك الرئيسي لما عرف بعد ذلك "بيسار اليسار"، والمدافع عن الحركة الإجتماعية الأوروبية. في السنوات الاخيرة من التسعينيات كرس بورديو إهتماما كبيرا لنقد الدور الذى تلعبه وسائل الإعلام والميديا الجديدة فى فرنسا وشن نقدا حادا على فساد وسائل الإعلام الفرنسية وتبعية المثقفين الفرنسيين – كلاب الحراسة الجدد– لوسائل الإعلام من صحافة وإذاعات وبشكل خاص الدور الخطير الذى يلعبه التليفزيون فى تكريس الأوضاع والمصالح السائدة وفى التفريغ السياسي والتلاعب بعقول المستهلكين من المشاهدين والذى يقدم تحليلا لبنيته وآلياته فى هذا الكتاب الذى نقدمه للقارئ العربي.

المثقف المناضل :

"ليس جديا ان تفكر فى السياسة دون ان تتحلى بتفكير سياسي"، هكذا يوجز بورديو طبيعة الرؤية التى يجب ان يتحلي بها من يريد ان يفهم ما الذى يحدث فى هذا العالم. لا يمكن فهم ظاهرة ما دون ان نحلل البنية والآليات التى تفرز هذه الظاهرة. يعتقد بورديو ان "العلوم الإجتماعية والممارسة النضالية يمكن ان يشكلا وجهان

لنفس العمل" ان تحليل ونقد الواقع الإجتماعي يسمح بالمساهمة في تغييره. ربما يتبادر الى الذهن مفهوم جرامشي عن "المثقف العضوي" ، لكن ما يدعو اليه بورديو يتجاوز مفهوم جرامشي وان كان لا يتعارض معه. "المعرفة الملتزمة" عند بورديو تذهب بعيدا في اضفاء المسؤلية المباشرة على المفكر أو المثقف فيما يمارسه وينتجه من عمل علمي او فكري. ان النتائج التى يمكن ان تنتج عن بعض الأعمال الفكرية او الابحاث العلمية يمكن ان تصل الى تجريم من يقوم بها اذا لم ينبه الى نتائجها السلبية والخطيرة على الإنسانية، المثال المعبر جيدا عن ذلك هو ما يحدث في مجال الأبحاث البيولوجية. إن عالم البيولوجيا الذى يعمل في بحوث تهيمن عليها مصالح السوق والشركات المتعددة الجنسيات والتى يمكن ان يكون لها نتائج إجتماعية خطيرة يصبح شريكا في جريمة ضد الإنسانية. التأمل المنطقي يمكن ان يؤدي الى سؤال بسيط هو: لماذا تظل هذه المعرفة سوية وتخضع لإجراءات عالية من التحكم والسيطرة؟ لماذا لا تصبح معرفة جمعية تشارك فيها الإنسانية جمعاء؟

يربط بورديو بين سياسة الليبرالية الجديدة وبين زيادة الفساد ومعدل الجريمة، بين سياسة الليبرلية الجديدة وبين ما يطلق عليه دوركهايم "الخلل او الفوضى" والإنحراف عن النظام الطبيعي. لكن مالذي يمكن عمله

تجاه الأخطار التي تفرضها سياسات الليبرالية الجديدة والتي تهدد مستقبل العالم كله؟ يدعو بورديو بشكل خاص الى خلق ادوات يمكنها ان تقف ضد التأثيرات الرمزية التي يمارسها <<الخبراء>> الذين يعملون في المؤسسات الدولية ولدى الشركات المتعددة الجنسيات. مثلا ، يكفي قراءة التقرير الاخير لمنظمة التجارة العالمية (OMC) فيما يتعلق بالخدمات، حتى نعرف سياسة التعليم التي ستفرض علينا خلال خمس سنوات. ان وزارات التعليم لن تفعل غير تطبيق التعليمات التي تم إعدادها من قبل خبراء قانونيين، علماء اجتماع وخبراء في الاقتصاد، والتي سيتم نشرها بمجرد الإنتهاء من وضع اللمسات القانونية لها. يدعو بورديو الى تشجيع شروط انشاء واقامة الهيئات والجمعيات التي تساهم في تحبيز الإنتاج الجماعي للاكتشافات والإختراعات والتي تعمل على انجاح ذلك ضمن مشروع سياسي. إن الجمعيات والهيئات التي لعبت دورا في إحداث تغيرات عميقة في تاريخ الإنسانية كانت تتكون من اناس عاديين لم ينتظروا تعليمات من احد ليقوموا بمبادراتهم. الجمعية التأسيسية التي سبقت الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ وجمعية فلادلفيا في امريكا كانتا تتكونان من اناس عاديين يساندهم خبراء قانونيون ولديهم بعض الأفكار التي وجودها لدى مونتسيكيو وهم الذين أنشاوا هيئات ديموقراطية بعد ذلك.

يعتقد بورديو فى وجود فرصة معقولة للنجـــاح ومؤشـــر ذلك تلك الحركات المتزايدة من مظاهرات وإحتجاجـــات، وايضا كأفكار، التي شهدناها في سياتل ودافوس وجنـــوة الخ. ان الوقت لم يفت بعد. لاننا لا زلنا في البدايـــــة وان الكارثة المحدقة بالعالم لم تزل في بدايتها. ويعتقد بورديـو ان حركة اجتماعية فعالـــة علـــى المســتوى الاوروبــي (ويمكن ان يكون ذلك نموذجا لمناطق اخرى في العــــالم) يجب ان تضم ثــــلاث مكونــــات : النقابـــات، الحركـــة الإجتماعية والباحثين، بشرط ان ينخرط الجميع داخل هذه الحركة. ويطالب بورديو الحركات الإجتماعية بان تلجـــأ الى الاعمال الرمزية ذات الكفاءة التى تعتمد على الإلتزام الشخصي والمادي للمشاركين فيـــها. بـــل يمكـــن لــــهذه الحركات ان تقوم بعض الاعمال متحملة بعض المخـــاطر مثل الإعتصامات وإحتلال بعض المواقع الرمزية الخ.*

- الأفكار الواردة فى هذا الجزء وردت فى مداخلة لبيير بورديو أمام لقاء مع نقابيين وباحثين تم فى اثينا فى شهر مــــايو ٢٠٠١ حـــول موضوعات اوروبا والصحافة والمثقفين ونشر فى كتاب "مداخلات"

Pieer bourdieu, INTERVENTIONS, 1961-2001
Science Sociale et action politique, Ed. AGONE.

بورديو والسياسة

يقول باتريك شامبان وهو من اقرب الباحثين الذين عملوا مع بورديو، ان الذين لم يعرفوا بورديو قبل عام ١٩٩٥، سيكون ليهم انطباع غير صحيح عن علاقته بالسياسة. الصورة التى صنعتها الصحافة وانتشرت بشكل واسع منذ عدة سنوات، سواء كانت ايجابية- انخراط بورديو فى الحياة السياسية- او كانت سلبية -تحول بورديو الى الراديكالية السياسية حتى يكون موضع حديث- هى صورة زائفة فى كلتا الحالتين. ان علاقة بورديو بالسياسة تعود الى فترة حرب الجزائر. لم يعتبر بورديو مطلقا ان علم الإجتماع هو مجرد مجال تخصص أكاديمي، انما كان مثله مثل دوركهايم يعتبر ان العلوم الإجتماعية لاتستحق مجرد ساعة من الإهتمام اذا لم تعود بشكل واسع الى المجتمع لكي تكشف آليات الهيمنة السائدة فيه. فى مقدمة كتاب " إعادة الإنتاج" La Reproduction (١٩٧٠)، يشرح بورديو ان علم الإجتماع كان سياسيا أكثر منه علميا لأنه يمكن من رؤية ما يخفيه العالم الإجتماعي. يقول بورديو "من المفهوم ان علم الإجتماع كان مرتبطا جزئيا بالقوى التاريخية التى كانت تحدد طبيعة علاقات القوى التى يجب الكشف عنها فى كل حقبة من حقب التاريخ". المشكلة السياسية الخاصة كانت تلك المتعلقة بنشر الأعمال العلمية المتقدمة التى

تسمح بفهم وتقدير أكثر ديموقراطية بقدر المستطاع للنتائج التى يتوصل اليها علم الإجتماع (فى مقابل البحوث العملية التى تتم حسب طلب الهيئات والمؤسسسات الحاكمة التى تستخدم العلوم الإجتماعية من اجل ان تتحكم بشكل أفضل وتهيمن بفاعلية على الخاضعين لهيمنتها).

ان صدور كتاب بؤس العالم قبل الإنتخابات عام ١٩٩٣ لم يكن مجرد صدفة : عمل جيد البناء نظريا، يرتكز على سنوات من العمل البحثي الذى شارك فيه عشرات من الباحثين الذين عملوا فى تعاون وثيق مع بورديو. هذا العمل الكبير موجه اساسا الى الكشف عن المعاناة الإجتماعية المتزايدة الناتجة عن سياسة الليبرالية الجديدة التى لم يكن المسؤلين السياسيين بكل انتماءاتهم قادرين على ادراكها بسبب من صراعاتهم الداخلية ولهاثهم وراء ارقام البورصة والإستطلاعات. هذا الكتاب الذى لاقى استقبالا إعلاميا واسعا جعل من بورديو شخصية عامة الى حد كبير.

ذهب بورديو خطوة اكثر الى الامام بإنشائه دار نشر "   " التى قامت بنشر سلسلة من الكتب من القطع الصغير ورخيصة الثمن (من بينها هذا الكتاب "عن التليفزيون") موضوعاتها تدور حول مسائل سياسية ساخنة وتهدف الى دفع الاعمال التى تقوم بها

العلوم الاجتماعية الى ساحة النضال السياسي. الكتاب الاول من هذه السلسلة هو هذا الكتاب "عن التليفزيون" الذى يحلل حالة الميديا ويسعى الى إظهار تاثيرات شاشة التليفزيون وما تنتجه من برامج وصور بعيدة عن اى موضوعية وتعكس رؤية للعالم غير محايدة سياسيا. وبسبب النجاح الجماهيري الهائل الذى حققه هذا الكتاب، تعرض بورديو لهجوم حاد من الحلقات الصغيرة لكهنة الميديا فى الصحف وقنوات التليفزيون.

لقد كان بورديو حاضرا بشكل دائم فى كل النقاشات السياسية الكبرى، محاولا فى كل مرة ان يجعل العلم الإجتماعي منخرطا فى هذه القضايا حتى يمكن فهمها بشكل أفضل. فى مواجهة المقولة الشهيرة "السياسة الواقعية" التى ظلت سائدة عبر العصور عمل بورديو على ان يطور الافكار التى هى بمثابة أدوات واسلحة فى مواجهة الهجوم النيوليبرالي مطلقا ما اسماه "سياسة العقل الواقعية"*.

---

* اعتمد هذا الجزء على المقال الذى نشره باتريك شامبان فى صحيفة "الإنسانية" بتاريخ ٧ فبراير ٢٠٠٢

بورديو والحركات المناهضة للعولمة :

ربما يمكن تشبيه الدور الذى يمثله بورديو بالنسبة للحركات المناهضة للعولمة بذلك الذى لعبه هربرت ماركوز وشي جيفارا بالنسبة لحركات الشباب التى هزت العالم عام ١٩٦٨. ان تحليلات بورديو النظرية عن الليبرالية الجديدة وما تمثله من خطر، وكشفه للبنى والآليات التى تحكمها قد لعبت بدون شك دورا اساسيا فى بللورة الأفكار والشعارات التى تحملها هذه الحركات. فى مقال نشره فى اللوموند ديبلوماتيك عدد مارس ١٩٩٨ يحلل بورديو الدور الذى تقوم به الهيئات المالية الدولية مثل صندوق النقد FMI والبنك الدولي ومنظمة التعاون والتنمية OCDE فى فرض برامج اقتصادية تتمثل فى خفض تكاليف الأيدي العاملة، خفض الإنفاق العام وما تطلق عليه مرونة العمل وهو ما يجعله يقول بان الليبرالية الجديدة تتحول بهذا الشكل الى *برنامج سياسي* يستند الى نظرية إقتصادية.

هذه النظرية عبارة عن لعبة من العاب الخيال الرياضي المستند فى الاصل على درجة عالية من التجريد. يكفي بهذا الصدد التفكير فى كيفية رؤية هذه النظرية الى التعليم الذى لم تعتبره على الإطلاق إلا سلعة مثل بقية السلع تنظر اليه من منظور اقتصادي بحت مبني على التنافس وهو ما يناهض المنطق الإجتماعي المستند

على قاعدة العدالة. النظرية النيوليبرالية كما يحللها بورديو نظرية مفرغة من البعد الإجتماعي ومفرغة من البعد التاريخي. الخطاب السائد فى سياسات الليبرالية الجديدة هو خطاب يشبه ذلك السائد فى مصحات الامراض العقلية، انه <<خطاب قوي>> وهو ليس قويا إلا لانه يهيمن على كل القوى فى عالم تحكمه علاقات قوى تفرض عليه ان يكون بالشكل الذى هو عليه. ان هذه النظرية تستند الى برامج تعمل على التدمير المنهجي لكل ما هو جماعي. يستمد البرنامج الليبرالي قوته الإجتماعية من القوة السياسية/الإقتصادية لهؤلاء الذين يعبر عن مصالحهم من مساهمين فى البورصات، المضاربين والعاملين فى سوق المال، رجال الصناعة، رجال السياسة المحافظين او الإشتراكيين الديموقراطيين الذين تحولوا الى تبني مبدا دعه يعمل دعه يمر مع فارق انهم من كبار الموظفين المتشدقين بالشعارات السياسية المفرغة عمليا من اى مضمون.

ان عولمة سوق المال مصحوبة بالتقدم الكبير فى تكنولوجيا المعلومات توفر حرية وسهولة حركة غير مسبوقة لرأس المال وبالتالي للمستثمرين الذين يسعون الى الربحية قصيرة الآجل لإستثماراتهم.

هكذا تتربع على العرش بلا منازع، المرونة فى العمل، عقود العمل قصيرة الآجل، التسريحات الجماعية

للعمال والموظفين، وفرض منطق المنافسة المطلقة بين فروع المؤسسة الواحدة وبين افراد المؤسسة الواحدة وسيادة الطابع الفردي للأجور، الخ. كل هذه المعاناة الهائلة التى ينتجها مثل هذا النظام السياسي/الإقتصادي هل ستؤدي فى يوم ما الى حركة قادرة على وضع نهاية لهذا السباق نحو الهاوية؟ فى الواقع نحن هنا امام تناقض هائل: على الرغم من هيمنة هذا الغائب الحاضر المسمي بالسوق (وهوايضا مكان تبادل المصالح) وعلى الرغم من ان اى محاولة لمواجهة ذلك تنتهي بالتراجع لصالح آليات السوق، إلا ان نشاط كل الفئات العاملة فى المجال الإجتماعي، وكذلك كل اشكال التضامن والتكافل الإجتماعي، عائلي او غيره لن تنهار وتسقط فى الفوضي على الرغم من الحجم المتزايد للسكان الذين يعيشون فى ظروف العوز والهشاشة. ان العبور نحو <<التحررية>> يكتمل بطريقة غير محسوسة وربما غير مدركة مثل الفالج الذى يشق القارات وتظهر تأثيراته الرهيبة على المدى الطويل.

ان مايسميه بورديو <<بالمثقف الجمعي>> عبارة عن كيان يأخذ شكل جمعية أو منظمة تضم متخصصين فى مجالات متعددة مثل الإقتصاد، علماء الإجتماع، علماء الإثنولوجيا والمؤرخين الخ.، الذين يضعون كفاءاتهم العلمية فى خدمة الحركات المعارضة للعولمة

لتكون بمثابة أسلحة فكرية وعلمية تسمح لهم بفهم مشاكل العالم الذى نعيش فيه بكل ما تتميز به من تعقيداتها سواء فى افغانستان او فى فلسطين او العراق.

ان بورديو من خلال مسيرته الفكرية والنضالية يقدم ادوات تعتبر بمثابة اسلحة فى الصراع الذي نشهده اليوم بين مصالح متداخلة شديدة التعقيد. العالم الإجتماعي عند بورديو حاضر فى كل عمل إقتصادي، والمجال الإجتماعي يعتبر مجال للقوة أو للنضال يتميز بطبيعة العلاقات والتفاعلات بين المشاركين فيه. فى هذا المجال يحتل الأفرد مواقع مختلفة تتحدد عبر الأشكال المختلفة لرأس المال الذى راكموه خلال حياتهم. ان ذلك يؤدي الى نشوء علاقات قوى والى علاقات للسلطة تاخذ شكل الهيمنة (المهيمنون/الخاضعين للهيمنة).

درويش الحلوجي

باريس يونيو ٢٠٠٢

تقديم الطبعة الاولى
محاولة للفهم

مجتمع الاستهلاك consommation ، المجتمع المـــابعد الصنـــاعي المجتمـــــع المابعدالحديث ، مجتمـــــع المعلومـــات ، الخ. كل هذه المصطلحات الني ظهرت وكثر استخدامها من قبل مدارس علم الاجتمـــاع المختلفـــة منـــذ مايقرب من ثلاثين عاما ماذا تعنى ؟ ولماذا تثير هذا النوع مـــن الفضول الفكري لدى المثقفيـــن بشـــكل عـــام ولـــدى البـــاحثين والمهتمين بالعلوم الاجتماعية بشكل خاص ؟

بداية، لايهدف هذا التقديم الى تنـــاول او معالجـــة هـــذه الاسئلة، لكن يمكن القول انه يحاول طرحها او اعـــادة طرحـــها بشكل آخر، اى فى علاقتها بموضوع هذا الكتاب. هذا الكتاب هام وخطير من هذه الزاوية، فهو بجانب الموضوع المباشـــر الـــذى يتناوله وهو <<وسائل الاعلام الحديثة>>وبالتحديد هذا الجـــهاز الهام والخطير -التليفزيون-، الا انه يفتح الطريق بشكل غـــير مباشر للتأمل والتفكير فيما هو ابعد من ذلـــك وتحديـــدا طبيعـــة المجتمع الذى نعيش فيه فى الوقت الراهن. لقد اثار هذا الكتـــاب منذ صدوره فى شهر ديسمبر ١٩٩٦ ولا يزال الكثير من الضجة والتعليقات مابين الترحيب الشديد الحماس وبين الـــهجوم الحـــاد على الكتاب وعلى مؤلفه عالم الاجتماع الفرنسي الشـــهير بيـــير بورديو، ويكفى ان نعلم انه قد تم طبع ثمانى طبعات منه خـــلال الشهور الثلاثة الاولى من اصداره (هذه الترجمة هـــى ترجمـــة

للطبعة الثامنة الصادرة في شهر مارس ١٩٩٧.). حتى نفهم لماذا كل هذا الجدل الذى اثير حول هذا الكتاب ربما يكون من المفيد ان نحاول بقدر الامكان ان نقرأ هذا الكتاب وفقا لمستويين في التفكير. اولا مستوى الموضوع المباشر الذى يعالجه ويحلله هذا الكتاب وهو الدور الذى تقوم به وسائل الاعلام الحديثة وفى القلب منها التليفزيون من " تلاعب وتأثير" فى عقول الناس. كيف تقوم هذه الوسائل بتشكيل الافكار و والوعي العام ؟ كيف تعمل آليات توجيه وتشكيل الوعي العام والرأى العام هذه ؟ من يقوم بالتحكم فى او بادارة هذه الآليات ؟ هل هم الصحفيون الذين يعملون فى هذه الاجهزة ام انه " النظام" أو "البنية" (SYSTEME – STRUCTURE) التى يعملون فى داخلها ؟ والعديد من الاسئلة الاخرى التى يمكن ان تطرأ على ذهن القارئ فيما يتعلق بالمعالجة المباشرة كما يقدمها الكتاب. لكن ثمة مستوى آخر من التفكير والتأمل يمكن ان نصل اليه اذا ماتم التعمق والذهاب الى ما هو ابعد من الموضوع المباشر، ذلك هو مايتعلق بطبيعة المجتمع ككل. ان هذه الآلة الهائلة اى المجتمع تخضع لأدوات ضبط وتحكم تهدف الى ان تجعلها تدور باتجاه " استراتيجيات " محددة، ودور ادوات الضبط والتحكم هذه هو احكام السيطرة علىالمحاور والتروس والحركات المختلفة التى تتم داخل هذه الآلة اى المجتمع. اننا نستخدم كلمة آلة هنا بالمعنى العلمي بطبيعة الحال وليس لمجرد المجاز، ذلك ان كل آلة هى عبارة عن " نظام" تم تصميمه وضبطه لأداء وظيفة او وظائف معينة، بهذا المعنى نتحدث عن " النظام الاجتماعي " او " النظام السياسي " الخ. لكن من الذى يقبع وراء ذلك كله ؟ انهم ليسوا بافراد معينين (على الرغم من الدور المباشر والغير مباشر الذى يقوم به الافراد فى ذلك) لكنه " منطق النظام " ذاته، ذلك المنطق الذى شيد على اساس تفضيل وهيمنة مصالح فئات و شرائح

اجتماعية معينة (يمكن تحديدها بدءا من المعطيات المحددة للتركيب الاجتماعي وطبيعة النظام السياسي والاقتصادي السائد فى كل مجتمع) ضد مصالح فئات و شرائح اجتماعية اخرى (فى جميع الاحوال هى الغالبية الساحقة من افراد المجتمع).

اذا ما استخدمنا عبارات اخرى للتعبير عما يسمى " منطق النظام " يمكننا بشئ من التقريب الحديث عن <<الايديولوجيا السائدة>>. لكن الموضوع ليس بهذه البساطة. ان الموضوع الذى يعالجه بيير بورديو فى هذا الكتاب يتعلق فى مستواه المباشر بهذه التكنولوجيا الحديثة و المتقدمة، اى تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، لكن الموضوع الغير مباشر (لكنه رئيسي واساسي!) هو علاقة الايديولوجيا بالتكنولوجيا.

اذا كان من الممكن اعتبار ان العلم محايدا، فان استخدامات وتطبيقات العلم اى التكنولوجيا ليست محايدة. فيما يتعلق بتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فان التوظيف والمضمون الايديولوجي لهذه التكنولوجيا يجد اوضح مثال له فى الدور الذى يلعبه التليفزيون. ولايقتصر ذلك الدور الخطير الذى يلعبه التليفزيون على التأثير المباشر على المشاهدين ولكن هذا التأثير يمتد كما يوضح بيير بورديو ذلك فى هذا الكتاب الى مجالات الانتاج الثقافي الاخرى وهذا ماينبه الى خطورته بشكل خاص.

لقد كثر الحديث عن " نهاية الايديولوجيات " و" نهاية التاريخ " الخ. ولكن الشئ المثير للدهشة والتعجب ان هذه المقولات التى روج لها كثيرا فى وسائل الاعلام خصوصا بعد انهيار سور برلين والتحولات السريعة والعنيفة التى شهدتها دول شرق اوروبا هى ذاتها تعبير عن ايديولوجيا تدعى السيادة

والانتصار على الايديولوجيات الاخرى !. مما لاشك فيه ان المواجهات الايديولوجية التى كانت سائدة طوال فترة الحرب الباردة قد انتهت بصورتها القديمة، اى المواجهة وجها لوجه وسيادة الخطاب الايديولوجى المباشر. لكن التحول الجديد الذى طرأ خلال السنوات العشر الاخيرة على وجه الخصوص هو انفراد ما يمكن ان نسميه بالايديولوجيا الناعمة بموقع الصدارة فى وسائل الاعلام المختلفة. " الايديولوجيا الناعمة " تتمثل فى تلك الجرعات اليومية بل اللحظية التى تبثها وسائل الاعلام الحديثة وكذلك الوسائط المتعددة Multimedia وانتشار الانترنت على المستوى العالمي. ان تلك الجرعات تتغلغل وتنساب الى عقول المشاهدين والقراء والمستمعين ومستخدمي الوسائط المتعددة والانترنت الخ. بطبيعة الحال المجال مفتوح لعمل دراسات على التوظيف والمضمون الايديولوجي لكل هذه الوسائل وهذا مايقدم له نموذجا منهجيا بيير بورديو فى هذا الكتاب. ان طريقة التحليل التى يقدمها بورديو هنا يمكن تطبيقها على مجالات اخرى.

من يملك المعلومات ؟

من يملك يسيطر ويتحكم. هكذا كان الأمر عبر المراحل المختلفة التى مرت بها المجتمعات الانسانية. السادة والعبيد، السادة يملكون كل شئ بما فى ذلك العبيد وبالتالى فلقد كانوا يسيطرون على ويتحكمون فى كل شئ. نفس الشئ نلاحظه فى الاشكال المختلفة التى طرأت على المجتمعات بعد ذلك وحتى اليوم. الصراع كان دائما بين طرفين بصرف النظر عن طبيعة المجتمع الذى يدور فيه هذا الصراع، من ناحية هناك من يملكون

وسائل الانتاج وادوات السيطرة والتحكم، ومن ناحية اخرى هناك دائما اولئك الذين يخضعون لشروط هـذه السيطرة ويسعون للتحرر منها. حدث هذا بين الاقطاعيين ممن كانوا يملكون الارض ومن عليها من البشر وبين الفلاحين الذين خاضوا نضالات وقاموا بانتفاضات وثورات عديدة من اجل التحرر. نفس الظاهرة يمكن ملاحظتها فى المجتمعات الرأسمالية، ظلت المواجهة الاجتماعية والسياسية من حيث الجوهر هى نفسها اى الصراع بين من يملكون ويسيطرون (فى هـذه الحالة ملاك الاراضي والمصانع والورش الخ) وبين من يعيشون فى ظل شروط ومحددات هذه الهيمنة والسيطرة (العاملين من العمال والفلاحين اساسا). ولعل من الهام الاشارة هنا الى ان الامر لم يكن يختلف كثيرا من حيث المضمون فى المجتمعات التى اتبعت طرقا مختلفة للتنمية واقصد هنا المجتمعات التى حدثت فيها تغيرات فى طبيعة النظام السياسي بعد ثورات وحركات اجتماعية عنيفة وهى المجتمعات التى كانت تعرف " بالاشتراكية " ففى هذه المجتمعات ظلت معادلة من يملك يحكم ويسيطر صحيحة حيث انتقلت ملكية وسائل الانتاج وادوات التحكم والسيطرة الى الدولة التى كان يسيرها ويديرها شرائح اجتماعية بيروقراطية حلت محل " الملاك والمسيطرين " القدماء (ملكية الدولة والدولة هى نحن !). ربما تساعد هذه الطريقة فى النظر الى الامور الى اعادة النظر فى تلك التحليلات الدوجمائية التى لايزال بعضها مستمرا حتى الآن والتى تحاول عبثا ان تدعى وجود اختلاف جوهرى بين مضمون التحكم والسيطرة فى كلا النظامين (" الاشتراكي " على الطريقة السوفيتية والاوروبية الشرقية وبين النظام الراسمالي.).

نصل الآن الى الاستنتاج الذى يؤدى اليه التحليل السابق. اذا كان من يملك يحكم ويسيطر ويفرض رؤيتــه للعــالم علــى الآخرين، واذا كنا كما نتلاقى فى ذلــك غالبيــة تيــارات علــم الاجتماع المعاصر قد دخلنا منذ بضع عشرات من الســنين فــى شكل او مرحلة جديدة من مراحل تطور المجتمع تلك التى يطلــق عليها اسم <<مجتمع المعلومــــات >>، الســؤال الــذى يواجهنا على الفور هو <<من يملك المعلومـــات ؟>> . قبــل محاولة الاجابة على هذا السؤال نود التأكيد على ان اهميته تعــود الى ان من يملك ويسيطر على المعلومات ووســـائل نقلــها فــى المجتمعات المعاصرة هو الذى يحكم ويسيطر ويفــرض رؤيتــه على الآخرين.

سيجد القارئ من خلال الامثلة المحـــددة التـــى يحللـــها ويقدمها بيير بورديو فى هذا الكتاب الاجابة على هذا السؤال.

****

فى العدد الاول من مجلـــــة " رؤي مغـــايرة " (فـــبراير ١٩٩٧) وهى مختارات مترجمة من مجلة MERIP وتصدر عــــن مركز القاهرة لدراسات حقوق الانسان، نشر تحقيق اعدته كل من سالي اثيلستون ومارتا وينجر بعنوان " من يملك الاخبار" عرضتا فيه قائمة باسماء الشركات والافراد الذين يملكـــون ويســـيطرون على اكبر الشبكات التليفزيونية فى الولايات المتحدة الامريكيـــــة وكذلك محطات الراديو وكبريات الصحف والمجـــلات العالميـــة (مثل : بوستن هيرالد، شيكاغو تريبيون، لوس انجيلـــوس تـــايم، نيويورك تايمز، يو.اس.توداى، وول ستريت جورنال، واشـــنطن

بوست، تايم ونيوز ويك الخ.) ويذكر هذا التحقيق الذى يمكن للقارئ المهتم ان يطلع فيه على مزيد من التفاصيل اسماء شركات صناعية ومالية عالمية مثل كابيتال سيتيز، وجنرال اليكتريك، وكوكس انتربرايز،الخ. بالاضافة الى اسماء كبار المالكين والمساهمين من امثال روبرت مردوخ، وارن بوفيت، لورانس تيتش صاحب سلسلة فنادق لويس، تد تيرنر (شبكة سى.ان.ان)، اسرة اوشز-سلزبرجر، اسرة هيرست، اسرة جراهام،الخ.

ان الصورة لاتختلف كثيرا على الجانب الآخر من الاطلنطي حيث نجد أسماء أسر وأفراد وشركات صناعية ومالية كبرى وراء شبكات التليفزيون والراديو وكبريات الصحف والمجلات التى تؤثر على وتشكل الرأى العام فى البلدان الاوروبية (والتى اعطى بيير بورديو امثلة عليها فيما يخص حالة فرنسا)، بل اننا نرى اسماء مثل روبرت مردوخ المتوج بامبراطور او ملك الميديا وراء ملكية كبريات الصحف الانجليزية الواسعة الانتشار وكذلك شبكات التليفزيون وقنوات البث عبر الاقمار الصناعية، وربما يكون المثال الاكثر دلالة الذى يجسد مدى خطورة هذه الظاهرة هو مثال سيرجيو بيرليسكوني فى ايطاليا.

حتى تكتمل الصورة، ربما يتسآل القارئ وماذا عن العالم العربي ؟ الاجابة لاتستدعى كثير من البحث ذلك ان جميع شبكات التليفزيون والراديو وكذلك معظم الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية مملوكة للدول وربما نجد تفسيرا لهذه الظاهرة فى ان الدولة ذاتها فى معظم هذه البلدان تحكمها اسر وعائلات مالكة كما هو الحال فى بلدان الخليج النفطية وان كان الحال لايختلف كثيرا فى الانظمة الجمهورية حيث تحكم فى

غالبيتها من قبل شبكات عائلية واجتماعية تلتف حول رئيس الدولة. يكفي القاء نظرة على البرامج والمساحة المخصصة لاخبار ونشاطات ملوك ورؤساء الدول في النشرات الاخبارية التليفزيونية لنرى الى اى درجة اصبحت هذه الظاهرة الامعقولة جدا عادية جدا بحكم العادة ومرور الزمن ! اخيرا وحتى يكتمل هذا العرض تبقى ملاحظة خاصة بالعلاقة بين التكنولوجيا والايديولوجيا في الفضاء العربي. مع التوسع السريع الذى حققه البث التليفزيوني المباشر عبر الاقمار الصناعية والتطور السريع الذى حققته تكنولوجيا الاتصالات دخلت الدول العربية هذا المجال سواء عن طريق شراء واطلاق اقمار صناعية خاصة بها (عرب سات / نايل سات) او عن طريق تأجير قنوات في اقمار صناعية مملوكة لاطراف آخرين. من الناحية الايديولوجية فان ملكية القنوات الفضائية العربية اى تلك التى تبث عبر الاقمار الصناعية ويتم استقبالها في جميع البلدان من خلال اجهزة الاستقبال الفضائية (الدش) التى انتشرت بدورها بسرعة فائقة ظلت تعكس نفس التركيب الخاص بملكية وسائل الاعلام في داخل الدول العربية. القنوات الفضائية العربية اما مملوكة للدول كما هو الحال في الداخل بالنسبة للبث الوطني او المحلي او انها مملوكة لتحالف وشراكة بين افراد من ابناء الاسر المالكة او من ذوى العلاقات الوثيقة معها (ART - MBC مثلا يهيمن عليهما تحالف كلى من الشيخ صالح والشيخ الوليد بن طلال والشيخ الوليد الابراهيمي كما ان قناة تليفزيونية اخرى انشأها ويديرها ابن شقيق رئيس لاحدى الدول العربية، بل ان قناة الجزيرة التى اكتسبت شهرة واسعة لاسباب عديدة لا مجال للدخول في تفاصيلها هنا، أنشاها أحد امراء الاسرة الحاكمة الذى يشغل في نفس الوقت منصب وزير في حكومة دولة قطر. والامثلة لا تنتهي).

ان العرض السابق يحتمل دون شك مخاطرة الوصــــول الى الاستنتاجات النهائية دون عرض تحليلي مفصل للمعطيـــات والآليات التى تسبق هذه النتائج، لكن ذلك يحتـــاج الـــى دراســة خاصة بهذا الموضوع تخرج عن نطاق هذا التقديم.

ان شبكات تبادل المصالح تتميز بالتداخل والتعقيد. هنـــاك المصالح المالية الهائلة للثروات البترولية المباشرة مـــن ناحيـــة، والاستثمارات البترودولارية فى مختلف البلدان (عربيـــة وغـــير عربية) من ناحية اخرى، ويكاد يكون من المستحيل فـــهم لمـــاذا اصبحت المعلومات ووسائل الاتصالات الحديثة تعبيرا عن هـــذه المصالح دون الاجابة عن السؤال المركـــزي الخـــاص بملكيـــة المعلومات ووسائل نقلها.

****

خاتمة

أثناء كتابة هذا التقديم كانت حركة العاطلين عن العمـــل تزداد وتتسع فى فرنسا. فى المظاهرات التى عمت معظم المـــدن الفرنسية يوم السبت ١٧ يناير ١٩٩٨ اشترك مؤلف هذا الكتـــاب بيير بورديو فى المظاهرة الكبرى التـــى ســـارت فـــى بـــاريس وضمت حوالى عشرين الف متظاهر من العاطلين والمتعـــاطفين مع مطالبهم. وربما تكون هذه الحركة الاجتماعية بمثابة تعبـــير جيد للتحليل الذى يقدمه بورديو فى هذا الكتاب. لقد لعبت وســـائل الاعلام دورا ملحوظا فى ابراز هذه الحركة التى فرضت نفســـها

على الرغم من محدودية عدد المشاركين فيها بالنسبة الى مجموع العاطلين عن العمل الذى يتجاوز الثلاثة ملايين فرد. ان انحياز بورديو الى جانب العاطلين والمستبعدين هو موقف عملي للنتائج التى توصل اليها فى العمل الكبير الذى قدمه فى كتاب " بؤس العالم ". ان التغيرات التى شهدتها المجتمعات الغربية خلال الثلاثين عاما الماضية (اى منذ اندلاع حركة الاضرابات والاحتجاجات الكبرى فى عام ١٩٦٨) تتجسد الآن فى تغير كيفي لطبيعة المجتمع. ان الامر لم يعد يتعلق فقط كما كان الحال فى السابق بالمواجهة بين من هم فى قمة الهرم الاجتماعي ومن هم فى قاعدته، لكن الامر وصل الآن الى حالة النضال بين من هم داخل "النظام" وبين اولئك الذين استبعدوا منه او هم فى طريقهم الى الاستبعاد ، لكن هذا موضوع آخر !.

درويش الحلوجي

باريس ٢٠ يناير ١٩٩٨

تمهيد

اخترت ان اقدم للتليفزيون هاتين المحاضرتين بهدف محاولة الوصول الى دائرة أوسع من دائرة الجمهور المعتاد الذى يتابع محاضراتى فى الكوليج دى فرانس. فى الواقع اننى اعتقد ان التليفزيون من خلال الآليات المتعددة التى أسعى الى وصفها هنا بطريقة سريعة – ذلك ان تحليلا معمقا ومنهجيا سيتطلب وقتا أطول بكثير – يكشف عن خطر كبير جدا يهدد مجالات مختلفة على مستوى الانتاج الثقافي، من فن، ادب، علم، فلسفة، قانون ؛ اننى اعتقد على عكس مايقوله ويفكر فيه بعض الصحفيين الاكثر وعيا بمسؤلياتهم، بلا شك مع تحليهم بكل النيات الحسنة، أن التليفزيون يكشف عن خطر كبير ليس أقل تهديدا للحياة السياسية وللديموقراطية. يمكننى ان أبرهن بسهولة من خلال التحليل والمعالجة على ان التليفزيون ومعه جزء من الصحافة مدفوعين بمنطق اللهاث وراء الإقبال الجماهيرى الاكثر اتساعا، قد أتاحوا وسمحوا للمحرضين على الممارسات والأفكار العنصرية والمعادية للآخرين أو من خلال تقديم التنازلات التى يمارسونها كل يوم منطلقين فى ذلك من نظرشوفينية قصيرة ضيقة الافق، ذلك إن لم نقل نظرة قومية للممارسة السياسية. بالنسبة لهؤلاء الذين يشكون فى اننى أبرز خصوصيات فرنسية تماما، فإننى اذكرهم بمثال واحد من بين ألف حالة لتشريح ما يقدمه التليفزيون الامريكي، وهو حالة المعالجة الاعلامية لمحاكمة ج. سيمبسون J. Simpson ، أو المثال الأكثر قربا على كيفية خلع حالة "الجريمة الجنسية " مع كل ما يترتب على ذلك من تداعيات كاملة للنتائج القانونية التى لاتخضع

للتحكم، بدءا من جريمة قتل عادية. لكن خادثة الحدود الحدود التى وقعت اخيرا بين اليونان وتركيا تمثل بلا شك أفضل تعبير علىالأطار التى تنتج عن اللهاث وراء التنافس بلا حدود على زيادة نسبة الإقبال : على أثر النداءات التى تدعو الى التعبئة وتحرض على القتال التى اطلقتها إحدى قنوات التليفزيون الخاصة بسبب النزاع حول قطعة ارض قاحلة متناهية الصغر (جزيرة مهجورة) تعرف باسم ايميا Imia ، إندفعت محطات الراديو والتليفزيون الخاصة فى اليونان وانخرطت فى حالة من المزايدة والحمى القومية، وبالمثل خضعت الصحافة وقنوات التليفزيون التركية لنفس منطق المنافسة بهدف جذب قراء ومشاهدين أكثر وألقت بثقلها فى المعركة. وتداعت الامور، إنزال للقوات العسكرية اليونانية فوق الجزيرة الصغيرة، تحركات للقطع الحربية البحرية، ولم يمكن تجنب اندلاع الحرب الا بالكاد. ربما يكون الشئ الأساسي الجديد فى تفشى حالة العداء للآخر وتصاعد المشاعر القومية التى نراها فى كل من تركيا واليونان، ولكن ايضا فى يوغوسلافيا السابقة و فى فرنسا أو فى اماكن اخرى، هو إمكانية إستغلال هذه المشاعر الأولية الى اقصى حد من جانب وسائل الاعلام الحديثة اليوم.

حتى أحاول احترام الإلتزام الذى حددته لهذه المحاضرة والمتمثل فى انها تعتبر *مداخلة*، بذلت جهدى حتى أعبر بطريقة يمكن ان تكون مسموعة من قبل الجميع. ان هذا يضطرنى فى الكثير من الحالات الى اللجوء الى التبسيطات أو التقريبات. من أجل وضع ماهو أساسي فى المحل الاول، أى – الخطاب المختلف (او الذى هو على عكس) مع ذلك الذى يمارس ويعتبر عاديا فى التليفزيون، اخترت بالاتفاق مع المخرج ان اتجنب أى بحث صوري وشكلي فيما يتعلق بالكادر وطريقة التقاط الصور

وتخليت عن الوسائل التوضيحية مثل مقتطفات البرامج، صور برقيات (فاكس) الوثائق، الاحصائيات الخ. ذلك انه بالاضافة الى ان مثل هذه التوضيحات ستستحوذ على وقت ثمين، فانها ستقطع بلا شك خط الإفتراض الذى يهدف الى ان يكون جيد التعبير ومرتكزا على حيثيات. ان التباين مع التليفزيون العادى الذى هو موضوع التحليل، مرغوب كوسيلة لتاكيد استقلال الخطاب التحليلي والنقدى، ذلك الذى يقدم من خلال الأشكال التعليمية المتحزلقة، الثقيلة والدوجمائية لمبحث عام : الخطاب الجيد التركيب الذى أستبعد شيئا فشيئا من برامج التليفزيون – القاعدة المستهدفة، ولنقل ذلك بوضوح، تلك التى تطبق فى الندوات السياسية فى الولايات المتحدة الامريكية، هى ان المداخلات لاتزيد عن سبع ثوان – هذا الخطاب يظل فى الحقيقة احد الاشكال الاكثر احكاما لمقاومة التلاعب وللتأكيد على حرية التفكير.

اننى ادرك جيدا ان النقد من خلال الخطاب الذى اجد نفسي محصورا فيه ليس أكثر من السبيل الوحيد الباقى، مجرد بديل، اقل كفاءة وتسلية من الخطاب الذى يمكن ان يشكل نقدا حقيقيا للصورة بالصورة، كما يحدث ذلك مع جان-لوك جودار Jean-Luc Godardفى فيلم " كل شئ على مايرام هنا وهناك " و فيلم " كيف يحدث هذا " وصولا الى بيير كارلز Pierre Carles. اننى ادرك ايضا ان ما أقوم به ينخرط ضمن استكمال ومواصلة النضال المستمر لكل العاملين فى مجال الصورة المرتبطين بالنضال من اجل <استقلال رمزهم الاعلامي> وعلى وجه الخصوص التأمل النقدى للدور الذى تلعبه الصور، ذلك الذى قدم عرضا نموذجيا له مرة اخرى جان-لوك جودار من خلال تحليله لصورة جوزيف كرافت Joseph Kraft وللاستخدامات التى تمت

منها. سيمكنني ان اخذ في اعتباري البرنامج الذي اقترحه المخرج : << هذا العمل، بدأ بالتساؤل سياسيا (انا قلت سوسيولوجيا) عن الصور والاصوات و*العلاقات* بينهما. ذلك لم يكن يعني كذلك القول : بأن " هذه صورة صادقة، لكن : ان هذه مجرد صورة ؛ ولا يعني القول : " ان هذا ضابط من الشمال يمتطي حصانا، لكن : ان هذه " صورة لضابط وحصان ."

يمكنني ان اتمنى لكن دون ان اقع في كثير من الوهم، ان تحليلاتي لن تقابل باعتبارها << هجوما>> على الصحفيين وضد التليفزيون مستهديا في ذلك بانني لاعرف اي حنين ماضوي نحو تليفزيون ثقافي من نوع تليسربون (تليفزيون السربون) أو أي رفض انفعالي و استرجاعي تماما لكل ما يمكن للتليفزيون على الرغم من كل شئ ان يقدمه عبر برامج تحقيقات (ريبورتاجات) معينة مثلا. على الرغم من ان لدي كل الاسباب من خشية ان هذه التحليلات لن تفيد بشكل خاص في تغذية مشاعر المجاملة النرجسية لعالم صحفي ميال جدا الى جلب نظرة نقدية بشكل مزيف نحوه، الا انني آمل ان تساهم هذه التحليلات في اعطاء أدوات او اسلحة الى اولئك الذين يتعاملون مع مادة الصورة، يناضلون من اجل ان هذا الذي يمكن ان يكون آداة رائعة للديموقراطية المباشرة لا يتحول الى آداة للمعارضة الرمزية.

١

المسرح والكواليس

أريد هنا ان احاول طرح بعض الاسئلة من خلال التليفزيون عن الدور الذى يلعبه التليفزيون. رغبة متناقضة الى حد ما لأننى اعتقد بشكل عام انه لايمكن ان نقول شيئا كثيرا من خلال التليفزيون، وبشكل خاص عندما نريد ان نقول شيئا عن التليفزيون. أليس من الواجب على اذا كان صحيحا انه لا يمكن ان نقول شيئا ذو أهمية عبر التليفزيون أن استخلص مع عدد كبار المفكرين، الفنانين والكتاب انه من الواجب علينا جميعا ان نمتنع عن التعبير عن آرائنا من خلال التليفزيون؟

يبدو ان هذا البديل لم يتم قبوله بشكل قاطع وفقا لطريقة كل شئ أو لاشئ. اننى اعتقد انه من المهم الاشتراك والتحدث عبر التليفزيون لكن " تحت شروط معينة ". اننى استفيد اليوم بشروط تعتبر استثنائية تماما وذلك بفضل قسم الصوتيات والمرئيات بالكوليج دى فرانس :

أولا- الوقت المخصص لي غير محدود.

ثانيا- الموضوع الذى اتناوله فى خطابى غير مفروض على - لقد حددته بشكل حر ويمكننى أيضا ان أغيره - .

ثالثا- ليس هناك أحد، كما هو الحال فى البرامج التليفزيونية العادية، لكى يذكرنى بضرورة التزام التعليمات بحجة الضرورات الفنية أو بسبب << المشاهد الذى لن يفهم مايقال >> أو باسم مراعاة الاخلاقيات أو ضروريات المشاهد الجيدة الخ. ان هذا

الوضع هو وضع خاص جدا، ذلك انه بمجرد استخدام لغة تتجاوز الموضة السائدة، فانني أمتلك << *تحكم فى أدوات انتاج* >> غير معتادة. بالحاحى على ان الظروف التى اتيحت لى هى ظروف استثنائية تماما أكون قد قلت بالفعل شيئا عن الظروف العادية التى نستدعى للحديث من خلالها عبر التليفزيون.

لكن، هل يمكن ان نقول لماذا نقبل الإشتراك رغم كل شئ فى برامج التليفزيون فى ظل الظروف العادية ؟ هذا سؤال غاية فى الاهمية ومع ذلك فان غالبية الباحثين و العلماء والكتاب، ذلك حتى لانتحدث عن الصحفيين، ممن يقبلون المشاركة فى البرامج التليفزيونية لا يطرحونه. يبدو لى ضروريا أن نتساءل عن هذا الغياب للتساؤل. فى الواقع يبدو لى انه بقبول الاشتراك فى برنامج تليفزيوني دون ان يشغل بالنا معرفة اذا كان من الممكن ان يقال بعض الشئ، فان ذلك يعتبر بشكل واضح خيانة، بأننا ليس هنا لنقول شيئ ما وانما لأسباب أخرى تماما، وبشكل خاص حتى نشاهد وأن نكون موضع رؤية الآخرين. << ان تكون، كما يقول بيركلى Berkeley، هو ان تدرك من قبل الآخر >>. بالنسبة لبعض فلاسفتنا (وبعض كتابنا)، ان تكون ذلك يعنى ان تدرك من خلال شاشات التليفزيون. أى – تحديدا، أن تدرك من قبل الصحفيين، أو كما يقال، أن تكون صورتك مقبولة من جانب الصحفيين (مما يتطلب بطبيعة الحال مساومات وتنازلات) – كما انه من الحقيقى انهم لايستطيعوا ان يعتمدوا على أعمالهم لكي يكونوا حاضرين باستمرار، ليس لدى هؤلاء من طرق اخرى الا الظهور بشكل متكرر كلما كان ذلك ممكنا على شاشة التليفزيون، وبالتالى ان يكتبوا على فترات منتظمة وأيضا مختزلة بقدر الامكان، كتبا وظيفتها الأساسية، كما لاحظ ذلك جيل دليز

Gilles Deleuze ، تأمين دعوتهم الى البرامج التليفزيونية. لهذا السبب اصبحت شاشة التليفزيون اليوم نوعا من مرآة نرجس، مكانا لاستعراض النرجسية.

هذا التمهيد ربما يبدو لى مطولا بعض الشئ، لكن يبدو لى انه من المرغوب أن يطرح الفنانون والكتاب والعلماء السؤال بشكل ضمنى – واذا امكن بشكل جماعي – حتى لايترك كل فرد نفسه امام اختيار ان يعرف اذا ما كان يجب ان يقبل أو لا يقبل الدعوات التى تقدم اليه للاشتراك فى البرامج التليفزيونية، ان يقبل وفقا لشروط أم يقبل دون أية شروط الخ. لقد تمنيت كثيرا (يمكن ان نحلم دائما) ان يضعوا هذه المشكلة ضمن اهتماماتهم، جماعيا، وان يحاولوا ان يقوموا بمفاوضات مع الصحفيين، سواء كانوا متخصصين ام لا، بهدف تحقيق نوع من العقد فيما بينهم. من الواضح ان ذلك لايعنى ادانة ولا محاربة الصحفيين الذين يعانون كثيرا من الحدود التى يضطرون الى فرضها فى برامجهم. على العكس تماما، ان ذلك يعنى ان يشارك الصحفيون فى تأمل مصوب نحو البحث جماعيا عن وسائل تجاوز تهديدات الخضوع للمنطق الآلى.

الجانب الذى اتخذ موقف الرفض التام والبسيط من المشاركة فى التعبير من خلال التليفزيون يبدو لى من غير الممكن الدفاع عنه. اننى اعتقد انه حتى فى حالات معينة، يستطيع هذا الجانب ان يجد ان هناك نوعا من الواجب عليه ان يؤديه عبر التليفزيون، بشرط ان يكون ذلك ممكنا فى ظل شروط معقولة. من أجل محورة الاختيار، يجب الاخذ فى الاعتبار خصوصية الأداة التليفزيونية. لقد تم جعل التليفزيون جهازا، هو من الناحية النظرية، يقدم امكانية الوصول الى كل الناس. من هنا تظهر على الفور بعض الاسئلة : هل ماعندي حتى أقوله موجه

لكل الناس ؟ هل انا مستعد ان اجعل من شكل خطابى نوعا من الخطاب الذى يمكن ان يكون مسموعا من كل الناس ؟ هل يستحق هذا الخطاب ان يسمع من قبل كل الناس ؟ يمكن حقا ان نذهب الى ماهو ابعد من ذلك : هل يجب ان يسمع هذا الخطاب من قبل جميع الناس ؟ هناك مهمة للباحثين وللعلماء على وجه الخصوص - من المحتمل انها ملحة بشكل خاص فيما يتعلق بعلوم المجتمع - وهى ان ترد الى الجميع المنجزات التى حققها العمل البحثي. كما يقول هوسرل : " اننا موظفون لدى الإنسانية " نتحصل على معاشاتنا من الدولة لكي نكتشف أشياء، سواء خاصة بالعالم الطبيعي، سواء متعلقة بالعالم الاجتماعي ويجب ان نذهب كما يبدو لى انطلاقا من الضروريات المفروضة علينا، لكى نرد ذلك الذى حصلنا عليه. لقد كنت مضطرا دائما ان اقور قبولى او رفضى للمشاركة فى التليفزيون تبعا لهذا التفحص الدقيق لتلك التساؤلات المسبقة. كنت آمل ان يطرح هذه الاسئلة كل هؤلاء الذين وجهت اليهم الدعوات للذهاب الى التليفزيون أو أنهم سيضطرون الى طرحها تدريجيا لأن مشاهدى التليفزيون ونقاد التليفزيون يطرحونها بل ويطرحونها فى علاقتها بظهورهم على شاشة التليفزيون : هل هناك شئ يقال ؟ هل هو فى وضع يسمح له ان يقول ذلك ؟ هل يستحق مايقوله ان يقال فى هذا المكان ؟ باختصار مالذى يفعله هناك ؟

رقابة خفية :

لكننى أعود الى ماهو أساسي ؛ لقد ذكرت فى البداية ان تحقيق الاشتراك فى برامج التليفزيون له فى المقابل وجود رقابة هائلة، فقدان للإستقلالية مرتبط مع أشياء اخرى بحقيقة ان

الموضوع المعروض قد تم فرضه، أن شروط الاتصال والحوار قد تم فرضها كما ان تحديد الزمن المفروض على خطاب المشاركين يفرض بشكل خاص حدودا صارمة بحيث يصبح من غير المحتمل وجود إمكانية حتى يقال شيئ ما. هذه الرقابة التى تمارس على المدعوين، ولكن أيضا على الصحفيين من مقدمي البرامج الذين يمارسون هذه الرقابة لأنهم يتوقعون ان ماسأقوله هو كلام فى السياسة. من الصحيح أن هناك تدخلات سياسية/ تحكم سياسي (الذى يمارس بوضوح من خلال تعيين المسؤلين فى المواقع القيادية) ؛ من الحقيقي ايضا وخصوصا فى فترة مثل الفترة التى نعيشها حاليا، أنه يوجد جيش احتياطي وقدر كبير من عدم الاستقرار فى وظائف العاملين بالتليفزيون والراديو، لذا فإن الميل نحو الخضوع للاعراف السياسية السائدة هو الى حدما ميل كبير جدا. الأفراد يخضعون للأعراف بشكل واعي أو بشكل لاواعي عبر الرقابة الذاتية، وذلك دون الحاجة الى تنبيههم الى ضرورة مراعاة النظام.

من الممكن أن نفكر أيضا فى الرقابة الاقتصادية. من الحقيقيانه يمكن القول فى التحليل النهائي بأن الذى يمارس الضغط على التليفزيون هو المحدد الاقتصادي. هذا يعنى أنه لايمكن السعى لقول شئ فى التليفزيون غير ذلك الذى تحدد من قبل هؤلاء الذين يمتلكون هذه المحددات، أى من قبل المعلنين الذين يدفعون ثمن إعلاناتهم، من قبل الدولة التى تمنح الدعومات، كذلك فيما يتعلق بإحدى القنوات التليفزيونية، اذا لم نعرف اسم المالك، نصيب كل من المعلنين فى الميزانية وقيمة الدعم الذى تقدمه الدولة، لايمكن فهم شيئا كثيرا. يبقى ما هو جدير بالتذكير به. من المهم معرفة ان شبكة NBC مملوكة لشركة جنرال اليكتريك (مما يعنى القول بانه اذا كان ثمة مغامرة لعمل مقابلات

فى المنطقة النهرية المحيطة بمحطة توليد كهرباء نووية فانه من المحتمل ان ... من ناحية اخرى فان مثل هذا الأمر لايرد على ذهن احد)، كذلك من المهم معرفة ان شبكة CBS مملوكة لشركة وستنجهاوس وان شبكة ACB مملوكة لشركة ديزني، وان القناة الاولى الفرنسية مملوكة لشركة بويج، ان كل ذلك له نتائج تمر عبر سلسلة من الوسائط. من الواضح ان هناك أشياء لا تستطيع حكومة ما ان تقوم بها ضد بويج ذلك اذا علمنا ان بويج هو الذى انشأ القناة الاولى TF1 .هنا تكمن الأشياء الكبيرة والفظة التى يمكن ان يدركها النقد الأكثر بساطة، لكنها تخفى الآليات المجهولة، الخفية التى من خلالها تمارس الرقابة من كل المستويات والتى تجعل من التليفزيون أداة هائلة للحفاظ على النظام الرمزي.

يجب على أن اتوقف للحظة عند هذه النقطة. ان التحليل السوسيولوجي يتعارض غالبا بشدة مع شئ من سؤ الفهم: هؤلاء الذين انخرطوا فى موضوع التحليل، وفى هذه الحالة الخاصة هنا هم الصحفيون، لديهم ميل للاعتقاد بأن العمل التوضيحي والشرح، و كشف الحجاب عن الآليات، هو عمل تشهيري موجه ضد أشخاص او كما يقال هو " هجوم " أو نوع من التشهيرات الشخصية، adhominem (ذلك يعنى انه اذا كتب او قال عالم الاجتماع عشر ماينتظر منه عندما يتحدث مع صحفييين عن <الاعمال المنزلية> مثلا، أو عن صناعة – نعم صناعة – البرامج، فانه سوف يستبعد من جانب نفس الصحفيين بسبب الموقف الذى اتخذه وبسبب افتقاده للموضوعية). ان الافراد بصفة عامة لايحبون مطلقا ان يوضعوا موضع تساؤل، ان يكونوا بمثابة هدف، ان يموضعوا والصحفيون بشكل خاص دون جميع الآخرين. انهم يشعرون بانهم مستهدفون وفى حالة اشتباك،

بينما كلما تقدمنا فى تحليل وسط ماء كلما وصلنا الـــى تتخليــص الافراد من مسؤلياتهم الفردية، - ذلك لايعنى تبرير كل مايجرى - وكلما فهمنا بشكل افضل كيف يعملون، كلما فهمنا ايضـــا ان الافراد الذين يشتركون فى ذلك يخضعون للتلاعب والتأثير بقـدر مايمارسون هم أنفسهم عملية التلاعب والتأثير. انهم يمارســـون التلاعب والتأثير على الآخرين فى كثير مـــن الاحيـان بشـكل افضل، وغالبا بطريقة جيدة، حتى بأفضل مما يخضعون له هـــم أنفسهم من تاثير وتلاعب وبدرجة أكبر بشكل لاواعي. إننى الــح على هذه النقطة مدركا فى نفس الوقت انه على الرغم من كــــل شئ، فان كل هذا الذى اقوله سيقابل كنقد ؛ ورد الفعل هــذا هـــو ايضا نوع من الدفاع ضد التحليل. اننى لااعتقد ان الإعلان عـــن الفضائح، عن الاحداث وعن اســاءات هـــذا المذيـــع او ذاك، أو المرتبات الخيالية المفرطة والمبالغ فيها لبعض المنتجين، يمكـــن ان تؤدى الى تحويل الانظار عما هو أساسي باعتبـــار ان فســاد الافراد هو قناع لهذا النوع من <<الفساد البنيوي>> (لكـــن هـــل يجب الحديث مرة اخرى عن الفساد ؟) الذى يمارس على مجمـل اللعبة من خلال آليات مثل التنافس على كسب جزء من الســـوق، وهو ما ارغب فى محاولة تحليله.

اننى اريد اذن تفكيك سلسلة من الآليات التـــى تثبـت أن التليفزيون يمارس نوعا من " العنف الرمزي " بشـــكل خـــاص. العنف الرمزي هو عنف يمارس بتواطؤ ضمني من قبل هـــؤلاء الذين يمارسونه بقدر ان هـــذا او ذاك غــير واع بالممارســـة أو بالخضوع لها. ان علم الاجتماع مثل كل العلوم وظيفته ان يكشف القناع عن الاشياء الخفية، هذا العمل يمكن ان يساهم فى تقليـــل العنف الرمزي الذى يمارس فى العلاقات الاجتماعية خصوصـــا فى علاقات أدوات الاتصال الإعلامية.

فلناخذ الشئ الاكثر سهولة : الأداث المتفرقة التتى كانت دائما المرعى المفضل لصحافة الإثارة ؛ الدم والجنس، الدراما والجريمة كانت دائما تبيع جيدا وتتربع على عرش جذب المشاهدين تتصدر الفقرات الأولى من افتتاحيات نشرات الأخبار التليفزيونية، هذه العناصر التى تم استبعادها او إبعادها حتى الان من جانب معيار الاحترام المفروض على نموذج الصحافة المكتوبة الجادة. لكن اللأداث المتفرقة هى ايضا الاحداث التى تتسبب فى تحويل الأنظار وتلهي المشاهدين. إن الحواة والسحرة لديهم مبدأ أولى يتمثل فى جذب الانتباه نحو شئ آخر غير ذلك الذى يقومون به. ان جزءا من العمل الرمزي للتليفزيون على مستوى المعلومات مثلا يتمثل فى جذب الانتباه نحو أحداث تتميز بأنها تهم كل الناس ومنها ما يمكن ان نقول عنها انها بمثابة *اومنيبوس* أو حافلة عامة – يستقلها كل الناس. أحداث الحافلات العامة هى كما يقال احداث لا يجب ان تصدم احد، انها بلا مجازفة، لا تسبب الانقسام وتؤدى الى التراضي والتفاهم وتهم كل الناس لكن على أساس نموذج كذلك الذى لايمس اى شئ ذو أهمية. الاحداث المتفرقة هى بمثابة هذا النوع من السلع الغذائية الأولية بالنسبة للمعلومات الهامة جدا لانها تهم الجميع دون ان تؤدى الى نتيجة ما وهى تستهلك وقتا، وقتا يمكن إستخدامه لقول شئ آخر. اذا كان الحال كذلك فان الزمن سلعة غذائية نادرة للغاية فى التليفزيون. اذا ماتم استخدام الزمن حتى الدقائق الثمينة جدا لكى تقال أشياء تافهة فارغة جدا، فان ذلك يعود الى أن هذه الاشياء التافهة جدا هى فى الواقع هامة جدا بالقدر الذى تخفى فيه أشياء ثمينة فعلا. اذا كنت ألح على هذه النقطة فان هذا يرجع من ناحية أخرى الى أننا نعرف انه توجد نسبة هامة من الافراد الذين لايقرأون أية صحيفة يومية، أولئك الذين وهبوا أنفسهم جسدا وروحا للتليفزيون كمصدر وحيد للمعلومات. يتمتع التليفزيون

بامتلاك نوع من اللاابتكار للحدث بدلا عن تكوين العقـــول فيمـــا يخص جزء كبير من السكان. والحال أنه بالتركيز على الاحـداث المتفرقة يتم إحلال الوقت النادر بزمن فارغ، بلا شئ أو تقريبـــا لاشئ، بتجنب المعلومات الملائمة التي يجب ان يمتلكها المواطـن حتى يمارس حقوقه الديموقراطية. بهذا الانحراف يتم التمحـــور حول انقسام في مادة المعلومات بين هؤلاء الذيـــن يسـتطيعون قراءة الصحف اليومية الجادة، اذا كان صحيحا انها لاتزال جـادة بالنظر الى المنافسة مع التليفزيون، هؤلاء الذين يطلعـون علـى الصحافة العالمية ويستمعون الى محطات الراديو باللغات الاجنبية من ناحية، ومن ناحية أخرى اولئك الذين فيما يتعلق بالمعـــارف السياسية فان هذه المعارف تصلهم من خلال التليفزيـــون، ذلــك يعني بشكل تقريبي لا شئ (بعيدا عـــن المعلومـــات التـــى تمـد بالمعرفة المباشرة عن الرجال والنســـاء بـــالنظر الـــى اشـكال وجوههم، الى تعبيراتهم، كثير من الأشياء التـــى يعـــرف فـك رموزها من يعانوا أكثر من غيرهم ثقافيا – الأمر الذى لايســاهم الا قليلا في إبتعادهم عن عدد من المسؤلين السياسيين).

فن حجب المعلومات :

اننى اشدد القول هنا على ماهو مرئي أكـــثر. أريـد ان اذهب الى معالجة أشياء تبدو أقل وضوحا بدرجة ما عندما يتـــم عرضها بالشكل الذى يقدمه بها التليفزيـــون. عندمـــا يعـرض التليفزيون، وهنا وجه التناقض، أشياء يتم اخفائها عـــن طريــق عرضها، بواسطة عرض شئ آخر غير ذلك الذى يجب عرضه، اذا ما تم عمل المفروض عمله، أى إعلام المشاهد، ؛ أو كذلـــك عندما يظهر التليفزيون ذلك الذى يجب عرضـــه لكـــن بطريقـــة

لاتسمح بعرضه أو بأن يصبح غير ذا مغزى، أو عندمـــا يقــوم بإعادة تشكيله بحيث يأخذ معنى لا يقابل الحقيقة على الاطـــلاق. بالنسبة لهذه النقطة سأتناول مثالين مستعارين من أعمال بـــاتريك شامبان Patrick Champagne. فى كتاب " بؤس العالم " (du monde) خصص باتريك شامبان فصلا للصورة التى تقدمــــها وســـائل الاعـــلام للظـــاهرة المعروفـــة باســـم " الضواحــــي <<banlieue>> يبين فيه كيف ان الصحفيين مـــأخوذين فـــى آن واحد بميولهم ومسؤلياتهم الوظيفية، برؤيتهم للعـــالم، بتكوينـــهم، وبمراتبهم المهنية ولكن ايضا بالخضوع لمنطق المهنة، يختـارون من هذا الواقع الخاص أى الحياة فى مناطق ضواحـــي المـــدن، اعتبار خاص تماما يعمل وفقا لنوعية الفئات (الشـــرائح) التـــى تتلقى ذلك وتمتلك رؤية خاصة تماما. الاستعارة الاكثر شـــيوعا في الاستخدام من قبل الاساتذة لشرح هـــذا التعريـــف للفئـــة (او الشريحة)، أى – هذه التركيبات الغير مرئية التى تنظـــم عمليـــة التلقى، تحدد هنا هذا الذى نراه وذلك الذى لانراه، هـــذه العمليـــة شبيهة بتلك الخاصة بالمنظار (النظارات). هذا التقسيم للشـــرائح هو نتاج نظام تعليمنا، هو نتاج التاريخ الخ. ان الصحفييـــن هـــم بمثابة " نظارات " خاصة بواسطتها يرون اشياء معينة ولايـــرون الأشياء الاخرى ؛ كما أنهم يرون هذه الاشياء بطريقة معينة. انهم يمارسون عملية اختيار ثم عملية إعادة تركيب لذلك الـــذى تـــم اختياره.

الفكرة التى يتم وفقا على أساسها الاختيار هى البحـــث عما هو مثير، عما يجذب ويدفع للمشاهدة. يدعو التليفزيون الـــى دفع الأمور نحو إضفاء طابع<< الدراما>> وذلك بمعنى مـــزدوج : انه يضع فى المشهد، فى الصورة، واقعة أو حدث ثـــم يقـــوم بالمبالغة فى أهميتها، فى خطورتـــها وفـــى صفاتـــها الدراميـــة

والتراجيدية، بالنسبة لظاهرة الضواحي فان ماسيشد الاهتمام ويثير هو الانتفاضات وأحداث العنف. هذه بالفعل كلمات كبيرة...(يتم نفس الشئ بالنسبة للكلمات المكتوبة. باستخدام الكلمات المعتادة << لانثير دهشة البرجوازي >> ولا <<الشعب>>. يجب استخدام كلمات خارقة للعادة. في الواقع، وهنا وجه التناقض، فان عالم الصورة تهيمن عليه الكلمات. الصورة لاتعنى شيئا دون التفسير (المفتاح) الذى يقول ذلك الذى يجب ان تتم قراءته – مفتاح التفسير Legendum – ذلك يعنى انه فى اغلب الاحيان، هناك مفسرين يقومون برؤية أى شئ. ان يعين شخص ما فى موقع، هذا يعنى، ونحن نعلم ذلك جيدا، ان يعرف كيف يشاهد، ان يبدع ويدفع الى الحضور. يمكن للكلمات ان تسبب الدمار والخراب : اسلام، اسلامي، مسلم – هل الحجاب هو حجاب اسلامي أم حجاب مسلم ؟ هل تاثيره يكمن ببساطة فى مجرد شكله أم أنه اكثر من ذلك؟ تحضرني أحيانا رغبة فى اعادة اخذ " كل كلمة " من كلمات مقدمي البرامج التليفزيونية الذين يتحدثون غالبا بخفة ودون ان يتحلوا بأقل فكرة عن صعوبة وخطورة ذلك الذىيقدمونه ولا عن المسؤليات التى يتحملونها نتيجة لما يقدمونه للآلاف من مشاهدي التليفزيون دون فهم لما يقدمونه ودون أن يدركوا أنهم لايفهمونه. لان مثل هذه الكلمات تخلق أشياء، تخلق التصورات والتخيلات الخادعة، تحدث الخوف، تؤدى الى الهلع والرهبة أو ببساطة الى تقديم عروض زائفة). يهتم الصحفيون اجمالا بما هو استثنائي، بذلك الذى يعتبر <<استثنائيا من وجهة نظرهم >> . ان هذا الذى يمكن ان يعتبر عاديا بالنسبة للآخرين يمكن ان يكون خارقا للعادة بالنسبة الى هؤلاء الصحفيين أو العكس. انهم يهتمون بماهو خارق للعادة، بذلك الذى لاصلة له بما هو عادى، بذلك الذى لايعتبر شيئا يوميا – ماهو يومي يجب ان يؤدى يوميا الى

ماهو " فوق-اليومي "، هذا ليس سهلا... من هنا تلك المكانة التى تخصص وتعطى للعادى الخارق للعادة، اى المنتظر من قبل التوقعات العادية، حرائق، فياضانات، اغتيالات، احداث متفرقة. لكن الخارق للعادة هو ايضا وعلى وجه الخصوص ذلك الذى ليس عاديا بالنسبة لنشرات الأخبار الأخرى. انه ذلك الذى يعتبر مختلفا عما هو عادى والذى يختلف عما تقول عنه نشرات الاخبار الاخرى أنه عادى، أو تقوله بشكل عادى. هذا الوضع بمثابة اجبار وارغام فظيع : ذلك الذى يفرض متابعة << السبق المثير>> حتى يكون أول من يشاهد وأول من يدعو الى مشاهدة أشياء معينة، ثمة استعداد بدرجة كبيرة الى فعل اى شئ، كما لو انه يتم النسخ والنقل بشكل مشترك بالنظر الى سبق الآخرين، ان تفعل ذلك قبل الآخرين، ان تفعله بشكل مختلف عن الآخرين، ثم ينتهى الامر بأن يفعل الجميع نفس الشئ، البحث عن السبق المثير، ذلك السبق الذى يؤدي فى مجالات أخرى الى التفرد والىانتاج أعمال اصيلة ينتهى به الامر هنا الى القولبة والابتذال.

هذا البحث العنيد الذى يهتم بما هو خارق للعادة وغير مألوف يمكن ان يتضمن الكثير من التأثيرات السياسية بالاضافة الى الارشادات والتعليمات السياسية المباشرة او الرقابة الذاتية المستوحاة من الإطارات المحددة لعملية الإستبعاد. بامتلاك هذه القوة الاستثنائية، أى قوة الصورة التليفزيونية، يمكن للصحفيين ان ينتجوا تأثيرات دون معادل أو مقابل. ان الملاحظة اليومية لضاحية ما فى رتابتها وخمولها لاتعبر عن شئ بالنسبة لاحد، لاتهم اى واحد والصحفيون اكثر من اى فرد آخر. لكن هل يهتمون حقيقة بما يحدث فى الضواحي وهل يرغبون فى عرضه فعلا؟ ان ذلك على كل حال هو الذى سيكون صعبا للغاية. ليس هناك شيئا اكثر صعوبة من ان تجعل المشاهدين يشعرون بالواقع

في أحواله المتغيرة. لقد كان فلوبير يحب ان يقول : " يجب رسم ماهو ردئ بشكل جيد " .هذه هي المشكلة التي تواجـــه علمـــاء الاجتماع : ان تجعل مما هو عادى شيئا فوق-عادى ؛ تقديم مـــا هو عادى بطريقة تجعل الافراد يرون الى اى درجة هو أكثر من عادى.

تاتى المخاطر السياسية الملازمـــة للاســـتخدام العـــادى للتليفزيون من حقيقة ان للصورة تلك الخاصية التـــى يمكنـــها ان تنتج ما يسميه نقاد الادب " تأثير الواقع " ، يمكنها ان تؤدى الـــى رؤية اشياء والى الاعتقاد فيما تراه. هذه القدرة على الاســـتدعاء لها تأثيرات ونتائج تعبوية. يمكنها ان تخلق أفكار أو تعبـــيرات، لكن يمكنها ايضا أن تخلـــق مجموعـــات. الاحـــداث المتفرقـــة، الحرائق أو الحوادث اليومية ؛ يمكن ان تعبأ وتشحن بتورطـــات سياسية وأخلاقية ؛ قادرة على اثارة مشاعر قوية غالبا سلبية مثل المشاعر العنصرية ومشاعر الزينوفوبيا (العداء للأجانب)، مركب الخوف والعداء مما هو أجنبي والنتيجة النهائية البسيطة هـــى أن واقع التقرير *to record, en reporter* يســـتلزم دائمـــا بنـــاء اجتماعي للواقع قادر على ممارسة تأثيرات اجتماعية تعبويـــة (او اجهاضية / واحباطية).

مثال آخر أستعيره من باتريك شـــامبان، ذلـــك الخـــاص باضراب طلاب المدارس الثانوية عام ١٩٨٦، حيث نرى كيـــف يمكن للصحفيين بكل النية الحسنة والســـذاجة التامـــة مدفوعيـــن بمصالحهم التى تهمهم أولا - بافتراضاتهم وبمستويات ادراكاتـــهم وتقديرهم للأمور، وبلاوعيهم الكامن، يمكن ان ينتجوا تـــأثيرات عن الواقع وتأثيرات فى الواقع، تأثيرات غير مرغوبة من أحـــد ويمكنها ان تصبح فى بعض الاحيان تأثيرات كارثية. لقـــد كـــان الصحفيون فى مقدمة حركات مايو ١٩٦٨ ، وهنا كان خوفهم من

ان لا يلتحقوا ب << ٦٨ جديد >>. لقد جعلوا من مراهقين غير مسيسين كثيرا ومن الذين لايعرفون كثيرا ماذا يقولون متحدثين باسم الحركة (وهم دون شك من بين الاكثر تسيسا من بينهم) تؤخذ احاديثهم بجدية كما ان هؤلاء المتحدثين باسم الحركة يأخذون ذلك بجدية أيضا، ومثل الخيط فى الابرة، فان التليفزيون الذى يسعى لأن يكون آداة لتسجيل الاحداث يصبح آداة لخلق الواقع. اننا نذهب أكثر فاكثر نحو عوالم حيث الحياة الاجتماعية توصف وتفسر بواسطة التليفزيون. يصبح التليفزيون هو الحكم للانخراط والدخول فى الحياة فى الوجود الاجتماعي والسياسي. افترضوا اننى ارغب اليوم فى الحصول على حق المعاش فى سن الخمسين عاما. منذ عدة سنوات كان على ان اقوم بالتظاهر، تعد اللافتات وتسير المظاهرة وتصل الى وزارة التعليم الوطني ؛ اما اليوم، يجب استدعاء - اننى ابالغ بالكاد - مستشار متخصص ومؤهل فى الاعلام. يتم عمل بعض الخدع الحاذقة التى تشد اهتمام وسائل الاعلام وتصدمها : مع بعض التنكر والاقنعة الماكرة يتم الحصول بواسطة التليفزيون على تأثير ليس بعيدا عن ذلك الذى يمكن ان تحصل عليه مظاهرة تتكون من خمسين ألف فرد.

أحد الرهانات السياسية على مستوى التبادل اليومى أو على المستوى العام هى القدرة على فرض مبادئ لرؤية العالم، نظارات مثل تلك التى يرى الافراد من خلالها العالم وفقا لبعض التصنيفات (الشباب و العواجيز، الفرنسيين والأجانب). بفرض هذه التقسيمات يتم خلق مجموعات، تعبأ وتعمل ويمكن ان تصل الى حد الإقتناع بوجودها، تمارس ضغطا وتحصل على امتيازات، فى ظل هذه النضالات يلعب التليفزيون اليوم دورا حاسما. هؤلاء الذين لايزالون يعتقدون بانه يكفى القيام بالتظاهر

دون احتلال شاشة التليفزيون يخاطرون بأن يفقـــدوا ضربتـــهم المستهدفة: يجب عمل تظاهرات للتليفزيـــون أكـــثر فـــاكثر، أى تظاهرات ذات طبيعة تهم الافراد العاملين فى التليفزيون وبشـــكل خاص اولئك الذين يماثلون الشريحة المقابلة لإدراكـــهم، هـــؤلاء الذين بتناوبهم، وتضخيمهم لقضيتهم، يحققون جدارتـــهم بكفـــاءة كاملة.

الانسياب الدائري للمعلومات :

لقد تكلمت حتى الان كما لو أن المعني بكل هذه العمليات هو الصحفي. لكن الصحفي هو عبارة عن وحدة مجردة لاوجـود لها ؛ الذي يوجد هو اولئك الصحفيون المختلفون تبعـــا للجنـــس، العمر، مستوى التعليم، طبيعة النشرة الاخبارية التى يقدمونـــها، " الوسيط ". ان عالم الصحفيين عالم منقسم توجد فيـــه الخلافـــات والازمات، المنافسات والمعارضات. هذا يعنى أن تحليلي يظـــل صحيحا لأنني أعتقد أن الانتاج الصحفي انتاج غير متجانس بقدر كبير اكثر مما نعتقد. الفروقات الاكثر وضوحـــا ترجـــع بشـــكل خاص الى اللون السياسي للصحف (التى هى من ناحية اخـــرى، ويجب ذكر ذلك، تتلون أكثر فأكثر...)، تخفي تماثلات وتشابهات عميقة تعود بشكل خاص الى الحدود المفروضة من قبل المصادر وكذلك بواسطة سلسلة كاملة من الآليات التى منها، وهـــذا هـــو الاكثر أهمية، منطق المنافسة. باسم المبدأ الليبرالي يردد دائما ان الإحتكار يقولب وأن المنافسة تؤدى الى التنوع . بكل وضـــوح ليس لدى شئ ضد المنافسة لكننى الاحظ فقـــط انـــه بمجـــرد ان المنافسة تتم بين الصحفيين وبين الصحف التى تخضـــع لنفـــس المحددات، لنفس استطلاعات الرأى، لنفس المعلنيـــن (يكفـــى ان

ننظر بأى سهولة ينتقل الصحفى من صحيفة الى أخرى)، فإن ذلك يجعلها متجانسة ومتشابهة. قارن أغلفة المجلات الاسبوعية الفرنسية مع فاصل اسبوعين من الزمن : إنها تحمل تقريبا نفس العناوين. كذلك، فى نشرات الأخبار التليفزيونية ونشرات محطات الراديو ذات البث الواسع الانتشار، سواء كانت الظروف حسنة أو سيئة، نلاحظ أن ترتيب الاخبار هو فقط الذى يتغير.

ان ذلك يرجع فى جانب كبير منه الى حقيقة ان الانتاج جماعي. فى السينما على سبيل المثال، الافلام هى من انتاج جماعي وتأخذ مقدمة الفيلم ذلك فى الاعتبار بعرضها لأسماء الفريق المشارك. لكن الجماعية التى تعتبر الرسائل التليفزيونية نتاج لها، لاتتعلق بالمجموعة المكونة من جميع اعضاء هيئة التحرير ؛ إنها تضم مجموع الصحفيين. يطرح دائما السؤال التالي<< ماهو موضوع خطاب ما ؟>>. لسنا متأكدين على الإطلاق بأننا موضوع ذلك الذى يقال... اننا نقول كثيرا أشياء أقل أصالة مما نعتقد. لكن هذا صحيح بشكل خاص فى المجالات التى تكون فيها الحدود المفروضة جماعيا قوية جدا وخصوصا حدود المنافسة لدرجة أنها تجبر كل منتج على عمل أشياء لن يفعلها اذا كان الآخرين غير موجودين ؛ أشياء يمارسها كي يصل قبل الآخرين مثلا. لاأحد يقرأ كثيرا من الصحف مثل الصحفيين الذين يتحلون من ناحية اخرى بنزعة للتفكير فى ان كل الناس تقرأ كل الصحف (بداية هم ينسون أن كثيرا من الافراد لايقرأون، ثم ان أولئك الذين يقرأون لايقرأون الا صحيفة واحدة. ليس من المعتاد ان تقرأ صحيفة اللوموند وصحيفة ليبراسيون وصحيفة الفيجارو الا اذا كنت محترفا). بالنسبة للصحفيين فان قراءة الصحف هى عمل لاغنى عنه، وتعتبر نشرة الصحافة بمثابة آداة عمل أساسية: لمعرفة ذلك الذى سنقوله يجب معرفة

ذلك الذى قاله الآخرون. يعتبر ذلك واحدا من الآليات التى من خلالها يتم تجانس الموضوعات المقترحة وتشابهها. اذا خصصت صحيفة ليبراسيون افتتاحيتها لحدث ما، فان صحيفة لوموند لايمكن ان تظل لامبالية، مع احتمال ان تتميز فى ذلك بعض الشئ (بالأحرى اذا ما كان ذلك يعنى القناة التليفزيونية TF1 .) وذلك حتى تسجل الفرق بينها وبين الآخرين وتحافظ على سمعتها الجادة. لكن مثل هذه الفروقات الصغيرة التى يعطي لها الصحفيون بشكل ذاتي قدرا كبيرا من الأهمية، تخفى التشابه الكبير فيما بينها. يكرس وقت كبير من نقاشات هيئة تحرير الصحف للحديث عن الصحف الاخرى، وخصوصا عن <<ذلك الذى فعلوه وذاك الذى لم يفعلوه>> (<< لقد تم اغفال ذلك! >>) وسنقوم بعمله - دون مناقشة - بما أنهم قد فعلوا بذلك. ربما يكون ذلك أكثر وضوحا على مستوى النقد الادبي، النقد الفني والسينمائي. اذا تحدث س من الصحفيين عن كتاب فى صحيفة ليبراسيون، وجب على ص ان يكتب عنه فى صحيفة اللوموند او فى مجلة لو نوفيل اويسيرفاتير، ذلك حتى وان وجد أنه كتاب تافه أو بلا اهمية، والعكس أيضا صحيح. ان هذا هو الذى يخلق النجاح الاعلامي، واحيانا يكون له علاقة بالنجاح فى التوزيع (ولكن ليس دائما). هذا النوع من لعبة المرايا العاكسة التى تمارس من كل جانب يحدث تأثيرا هائلا من الانعزال والانغلاق العقلي. مثال آخر على تأثير هذه القراءة المتبادلة، يتأكد فى جميع المقابلات : لكي يتم إعداد نشرة أخبار منتصف النهار، يجب أن تكون قد شاهدت عناوين نشرات أخبار الثامنة مساء اليوم السابق وكذلك صحف الصباح، ولكى أعد عناوين نشرة المساء يجب ان اقرأ صحف الصباح. ان هذا يصبح جزءا من الضروريات الضمنية للمهنة. ان هذا العمل ضرورى حتى تكون متميزا عن غيرك وتكون مشاركا فى اللعبة فى نفس الوقت. فى أغلب

الاحيان تكون الإختلافات الضئيلة التى يولى لها الصحفيون أهمية بالغة هى التى تمر دون ان يفطن اليها مشاهدى التليفزيون. (فيما يلي تأثير لمجال نموذجى بشكل خاص: فى الواقع بالنظر الـــى المنافسين الآخرين، فإن الأشياء التى يعتقد أنها تتم بشكل أفضـــل يتم ضبطها لتلائم بشكل أفضل رغبات العملاء). يردد الصحفيون مثلا – *اننى استشهد هنا* – << لقد مسخرنا TF1 >> ؛ طريقــــة للإعتراف بأنهم فى حالة منافسة وان جزءا هاما من الجهود التى يبذلونها مصوب نحو تحقيق إختلافات طفيفة. << لقد مســـــخرنا قناة TF1 >> هذا يعنى : وجود إختلاف ضئيل فـــى المعنـــى ؛ << انهم لم يستطيعوا إلتقاط الصوت، لكننا تمكنا من ذلـــك >>. فروقات أو اختلافات غير محسوســـة علـــى الاطـــلاق بالنســـبة للمشاهد العادى الذى لا يمكن ان يدرك ذلك الا اذا شـــاهد عـــدة قنوات تليفزيونية فى آن واحد، الاختلافات التى تمر بالتـــالي دون ملاحظة على الاطلاق، هى اختلافات ذات اهمية كبيرة من وجهة نظر المنتجين الذين يتحلون بفكرة ان مجرد ادراكها يساهم فـــى نجاح الأوديمات (زيادة عدد المشاهدين)، ذلك الاله الخفى لـــــهذا العالم الذى يهيمن على الوعي، كما أن خسارة نقطة فـــى ســـباق جذب المشاهدين، يعنى فى بعض الحالات نهاية مفجعة للبرنامج. هذه ليست الا احدى المعادلات، الزائفة من وجهة نظرى، فيمـــــا يتعلق بالعلاقة بين محتـــوى الـــبرامج التليفزيونيـــة وتأثيراتـــها المفترضة.

الاختيارات التى تمارس فى التليفزيون هى بشـــكل مـــا اختيارات بلاموضوع. لشرح هذا الافتراض الذى ربمـــا يكـــون مبالغا فيه بعض الشئ، سأعتمد فقط على تأثيرات آلية الانتشـــار الدائري التى اشرت اليها بشكل سريع: ان حقيقة ان الصحفييـــن يتحلون بصفات مشتركة كثيرة، فى المواقعهم التى يحتلونها، فـــى

ظروف عملهم، ولكن ايضا فى التكوين الأساسي، كل منهم يقــرأ للآخر، ويشاهد كل منهم الآخر، ويلتقـــي كــل منــهم بــالآخر باستمرار فى الندوات التى نرى فيها دائما نفس الافراد، كل هــذا يؤدى الى تأثير الانغلاق ويجب عدم التردد فى القول انه يــؤدى الى << رقابة >> فعالة ومؤثرة – بل أكثر فعالية من الرقابــات المركزية البيروقراطية – لأن أساسها غير مرئي – كما انها أكثر فعالية من التدخل السياسي المباشر والصريح. (لقيـــاس درجــة انغلاق هذه الحلقة المفرغة من المعلومات يكفى محاولة إختراقــها – لكي تعلن منها الى الجمهور الواسع – معلومات غير مبرمجــة حول الوضع فى الجزائر، حول وضعية الاجانب فى فرنسا الــخ. المؤتمر الصحفى والبيان الصحفى الرسمي لايفيد فى اى شـــئ ؛ فالتحليل محسوب وممل، ومن غير الممكن ان يتــم نشــره فــى صحيفة ما ذلك اذا لم يكن موقعا عليه من قبل اسم مشهور يجعله قابلا للتوزيع. حتى يمكن كسر هذه الحلقة يجب ان يتم ذلك عــن طريق تحطيمها، لكن هذا التحطيم لا يمكن الا ان يكون اعلاميــا. يجب الوصول الى تحقيق << ضربة >> تهم وسائل الاعــلام او على الاقل احدى << الوسائط >> والتى يمكــــن ان تتضخــم بالتبادل بعد ذلك بسبب تأثير منطق المنافسة.

اذا ما تسآلنا، وهذا سؤال يبدو ساذجا بعض الشئ، كيــف يتم امداد هؤلاء الافراد بالمعلومات وهم الذين يوكـــل اليــهم ان يمدونا نحن بالمعلومات، فانه يمكن القول بشكل عام أن امدادهــم بالمعلومات يتم بواسطة موردين آخرين للمعلومــــات (مصــادر المعلومات). بطبيعة الحال هناك وكالة الانباء الفرنســـية AFP ، وكالات الانباء العالمية، المصادر الرســـمية (وزارات، بوليــس الخ.) تلك التى يحتفظ الصحفيون بعلاقات تبادل معقدة جدا معها، الخ. لكن الجزء الاكثر اهمية وحســـما مـــن المعلومــات، أى "

المعلومات عن المعلومات " تلك التى تسمح بتقرير ما هو هـــام، بتقدير ذلك الذى يستحق ان ينقل عبر وسائل الاعلام، هذا الجـزء يأتى من مصادر معلومات أخرى. ان هذا يقود الى نــــوع مـــن التسوية أو المعادلة، الى احداث التجانس بين المراتب العليا التـــى تحتل المواقع الهامة. اننى اتذكر مقابلة أجريت معي مـــع احـــد مديري البرامج التليفزيونية؛ انه يعيش فى البداهـــة والوضـــوح التام. سألته : < لماذا تضع هذا الخبر فى المحل الاول وذاك فـــى المرتبة الثانية ؟ > أجابني : <هذا بديهى> . لهذا السبب دون شك فهو يحتل الموقع الذى يشـــغله ؛ أى ان هـــذه المســـتويات مـــن الادراك والفهم قد تمت معايرتـــها وضبطـــها وفقـــا لمتطلبـــات موضوعية. عندما كنت أنصت اليه وهو يتحدث الى لم استطع ان امنع نفسي من التفكير في جودار وهو يقـــول: << فـــى نهايـــة الامرفان فيرنويل Verneuil يعتبر انسان غجرى بالنسبة لمديـــر القناة الثالثة FR3 وذلـــك مـــن قبيـــل المقارنـــة. >>. بالتـــاكيد الصحفيون فى مختلف المواقع داخل الوسط الصحفى يرون بشكل غير متساو من الوضوح ذلك الذى يعتبرونه بديهيا. ان المسؤلين الذين يحققون الاقبال الكبير من قبل المشاهدين يتمتعون بشـــعور بالوضوح ليس من الضروري ان يشـــاركهم فيـــه الصحفيـــون المبتدئون الصغار، أولئك الذين يقترحون موضوعا ما فيأتيهم رد المسؤلين: <هذا موضوع ليست له أية فائدة...>. لا يمكن تقديـــم هذا الوسط كوسط متجانس : هناك الصغـــار، الشـــباب، هنـــاك المخربون، المزعجون الذين يقاتلون ببأس من اجل مجرد ادخـــال اختلافات بسيطة داخل هذه الآلة الساحقة شديدة التجـــانس التـــى تفرضها الحلقة المفرغة للمعلومات التى تنساب بطريقة دائريـــة بين الافراد الذين هم فى مجموعهم أفراد خـــاضعين للمحـــددات المفروضة عليهم من جانب ضرورة تحقيق نسب إقبال عاليـــة –

ويجب عدم نسيان ذلك – ان الكوادر انفسهم ليسوا الا الأيادى المنفذة لتحقيق نسبة الاقبال العالية هذه.

الاوديمات ، هو ذلك المقياس لنسبة الاقبال التى تتمتع بها القنوات التليفزيونية المختلفة (تتوفر حاليا وسائل فنية تم ادخالها حديثا لدى بعض القنوات تسمح بقياس نسبة الاقبال " الاوديمات " كل خمسة عشر دقيقة بل يمكن رصد التنويعات بين المشاهدين بالنسبة للفئات الاجتماعية المختلفة). لدينا اذن معرفة دقيقة جدا لهذا الذى يلقى اقبالا وذلك الذى لايلقى اقبالا من جانب المشاهدين. لقد اصبح هذا القياس لنسبة الاقبال اى الاوديمات الحكم الاخير بالنسبة للصحفيين : حتى فى الاوساط الصحفية الاكثر استقلالية ربما باستثناء صحيفة لو كنار انشانيه ولوموند ديبلوماتيك Le monde diplomatique ، وبعض النشرات الرائدة الصغيرة التى يحررها افراد شجعان " غير مسؤلين "، فان مسألة الاوديمات هى حاليا فى داخل كل العقول. توجد اليوم << عقلية اوديماتية >> (مهووسة بقياس نسبة الاقبال) فى اروقة صالات التحرير، فى دور النشر، الخ. فى كل الانحاء يفكرون وفقا لاعتبارات النجاح التجارى. منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى ثلاثين عاما فقط، منذ زمن بودلير وفلوبير الخ، فى اوساط الكتاب الرواد، الكتاب المعترف بهم من قبل الكتاب، وكذلك الفنانين المعترف بهم من قبل الفنانين، كان النجاح التجارى المباشر والفورى موضع شك وريبة و كان ينظر اليه كعلامة على المساومة مع هذا القرن، مع النقود... بينما اليوم وبشكل متزايد أكثر وأكثر تم الاعتراف بالسوق كجهة شرعية لاضفاء الشرعية. اننا نرى ذلك جيدا مع هذه المؤسسة الحديثة اى مايعرف بقائمة افضل المبيعات Best - sllers . لقد سمعت هذا الصباح ايضا احد المذيعين فى

الراديو يعلق ببراعة ومهارة على قائمة آخر افضل المبيعات وكان يردد : << ان الفلسفة هى موضة هذا العام لأن رواية " عالم صوفيا " (رواية تحكى بشكل شيق تاريخ الفلسفة وقد ترجمها الى العربية احمد لطفي. م) قد وزعت ٨٠٠٠٠٠ (ثمانمائة الف نسخة) ". انه يعطى رقم المبيعات كحكم مطلق، كحكم نهائي. من خلال نسبة الاقبال، فان المنطق التجاري هو الذى يفرض نفسه على الانتاج الثقافي. اذا كان الامر كذلك فانه من المهم معرفة ان كل الانتاج الثقافى الذى اقدره واعتبره ذو قيمة تاريخية حقا – وآمل أن لا أكون الوحيد فى ذلك – ليس الا انتاج عدد معين من الافراد و يعتبر بمثابة الإنتاج الاكثر رقيا للانسانية، فى الرياضيات، الشعر، الادب، الفلسفة، كل هذه الاشياء قد انتجت ضد معادلة الاقبال الجماهيري، ضد المنطق التجاري. نرى تغلغل عقلية الاوديمات هذه حتى لدى الناشرين الطليعيين، وحتى داخل المؤسسات العلمية التى تعدل من اوضاعها لممارسة التسويق، ان هذا يثير قلق بالغ لان هذا الوضع يخاطر بوضع ظروف انتاج الاعمال التى يمكن ان تبدو غامضة او مبهمة لانها لا تصل الى تحقيق ماينتظره منها الجمهور وإن كانت قادرة على ان تخلق جمهورها عبر الزمن، موضع تساؤل.

النقود والتفكير السريع :

LE FAST THINKING

تمارس هيمنةالأوديمات (نسبة الاقبال) على التليفزيون تأثيرا خاصا جدا : تترجم هذه الهيمنة فىالضغط المستمر لكل

ماهو طارئ وعاجل. المنافسة بين الصحف، المنافسة بين الصحف والتليفزيون، المنافسة بين قنوات التليفزيون المختلفة، كل ذلك يأخذ شكل منافسة آنية لحظية من اجل السبق والاثارة Le Scoop من اجل إحتلال الترتيب الاول. يبين آلان اكاردو Alain Accardo فى كتاب يضم عدة مقابلات مع الصحفيين، كيف ان الصحفيين العامليين فى أحدى القنوات التليفزيونية قد تم استدعائهم على وجه السرعة قناة تليفزيونية منافسة قامت " بتغطية " أحداث الفيضانات التى وقعت فى إحدى المناطق وذلك حتى يقوموا بتغطية ما لم تغطيه القناة المنافسة من. باختصار، هناك أشياء قد تم فرضها على مشاهدي التليفزيون لانها قد فرضت بدورها على منتجي البرامج التليفزيونية ولانها قد فرضت بسبب المنافسة مع المنتجين الآخرين. هذا النوع من الضغط المتقاطع الذى يفرضه الصحفيون الواحد على الآخر، هو ضغط مولد لسلسلة كاملة من النتائج التى يتم ترجمتها فى اختيارات، فى استبعادات و فى عرض هذا او ذاك.

قلت فى البداية ان التليفزيون لايقبل كثيرا التعبير عن الفكر. لقد بنيت علاقة سلبية بين العجالة الطارئة وبين الفكر. هذه واحدة من العناوين القديمة للخطاب الفلسفي : التناقض الذى قدمه افلاطون بين الفلسفة التى تمتلك زمانها وبين الافراد الذين يتواجدون فى الساحات العامة (الاجورا Agora)، اولئك الذين يخضعون لضغط الضرورات العاجلة. يقول أفلاطون الى حد قريب جدا، انه تحت ضغط الطوارئ لانستطيع ان نفكر. هذا وضع أرستقراطي بصراحة. هذه وجهة نظر الفرد المميز المحظوظ الذى لديه الوقت ولا يتساءل كثيرا عن وضعه المميز. لكن ليس هنا مكان مناقشة هذه الاعتبارات ؛ ان ما هو مؤكد، هو ان هناك علاقة بين التفكير وبين الزمن. احد المشاكل الكبرى

التى يطرحها التليفزيون هى مشكلة العلاقات بين التفكير والسرعة. هل يمكن التفكير اثناء السرعة؟ الا يدان التليفزيون بانه لن يحصل على الاطلاق الا على مفكرين -على السريع عندما يعطي الحديث لمفكرين اجبروا على ان يفكروا بسرعة متزايدة ؟ على مفكرين يفكرون بأسرع من ظلهم...

فى الواقع يجب التساؤل لماذا هم قادرون على قبول مثل هذه الشروط الخاصة تماما، لماذا يمكنهم ان يفكروا فى ظل ظروف لا يمكن لأى احد ان يفكر فى ظلها على الاطلاق ؟ يبدو لى ان الجواب هو انهم يفكرون من خلال " الافكار الشائعة " . " الأفكار السائدة والشائعة " التى تحدث عنها فلوبير، هى تلك الأفكار التى يتقبلها الجميع، تافهة مبتذلة، تقليدية، وسطية شائعة ومشتركة ؛ لكنها هى ايضا تلك الافكار التى عندما تتلقاها يكون قد تم قبولها بالفعل، بحيث لا يكون هناك محل لطرح مشكلة التلقى والادراك بعد ذلك. كذلك الحال، سواء كان الامر يتعلق بخطاب، بكتاب أو برسالة تليفزيونية، لأن المشكلة الكبرى للاعلام هى معرفة اذا ما كانت ظروف التلقى قد تم استيفائها ؛ هذا المشاهد الذى يستمع الى مايقال هل يمتلك مفتاح الشفرة كى يفك رموز ما أقوله ؟ عندما ترسل " فكرة شائعة " فان ذلك يعنى ان الامر قد حسم بالفعل ؛ لقد تم حل المشكلة. الإعلام هنا اعلام آني ولحظى لانه بمعنى ما ليس بإعلام. أو انه ليس إلا مظهر إعلامي. ان تغيير المواقع العامة (المشتركة) هو عبارة عن نوع من الاتصال الذى لايتضمن اى معنى آخر غير فعل الاتصال ذاته. " الأماكن العامة " التى تلعب دورا كبيرا فى المحادثة اليومية لها خاصية ان جميع الناس يمكن ان يتلقونها وان يتلقونها لحظيا : بسبب من تفاهتها هى شائعة ومشتركة بين المرسل والمتلقى، على العكس من ذلك فان التفكير هو من حيث التعريف

مخرب : يجب البدء بتفكيك (تدمير) " الافكــــار الشـــائعة " ثــم عرضها بعد ذلك. عندما كان ديكارت يتحدث عن العرض، فانـــه كان يتحدث عن سلاسل طويلة من العقول. ان هذا يتطلب وقتــا، يجب تقديم سلسلة من الاقتراحات التى تربطها كلمات مثــل " اذن " و " نتيجة لذلك " ، " ذلك يعنى "، " بقدر ماهو متوقع ان "...اذا كان الامر كذلك، ان هذا الانتشـــار للفكــر "*المفكــر*" مرتبــط جوهريا بالزمن.

اذا كان التيفزيون يفضل عدد معيـــن مـــن المفكريـــن- السريعين *fast-thinkers* الذين يقدمون غـــذاءا ثقافيــا علـــى السريع *fast-food* culturel، وهو نوع من التغذية الثقافية التى تـم اعدادها مسبقا، التى تم التفكير فيها مقدما، فذلك ليس فقط لأن من يقومون بذلك لديهم بطاقة عناوين جاهزة تتضمن نفس الاشخاص دائما (وهذا ايضا جزء من الخضوع لضرورات الطوارئ- حول الاوضاع فى روسيا هناك السيد او السيدة س ؛ بالنسبة لالمانيـــا هناك السيد ص الخ.) : ذلك ان هناك متحدثين مجدين يقومـــون بالبحث عما اذا كان هناك شئ ما يمكن قوله بالفعل، وهم غالبـــا من الشباب، غير معروفين بعد، ملتزمين فى ابحاثهم وليس لديهم نزوع للتردد على وسائل الاعلام التى يجب الذهـــاب واللـــهاث وراءها، بينما هى متاحة دائما وتحت الطلب وعلــــى اســتعداد لعرض اوراق أو اعطاء مقابلات لمحترفى وسائل الاعلام. لكـــن هناك ايضا حقيقة انه لكى تكون قادرا على << التفكير >> فـــى ظل ظروف لا يمكن لاحد ان يفكر فيها على الاطلاق، عليــك ان تكون مفكرا من نوع خاص.

ندوات زائفة أم ندوات حقيقية و مزيفة :

من الواجب ان نعود الى موضوع الندوات. حـول هـذه النقطة اريد ان اكون سريعا لانني اعتقد ان العرض سيكون اكثر سهولة : بداية هناك الندوات الزائفة فعلا، تلك التي نعرف علـى الفور أنها كذلك. عندما نشاهد على شاشة التليفزيون كل من الان منك Alain Minc و جاك أتالي Attali، الان منـك وسـورمان Sorman، فيري و فينكيلكـرو Ferry et Finkielkraut ، جويـار وامبير Julliard et Imbert ...، إنهم عبارة عن شركاء (يوجد في الولايات المتحدة الامريكية أفراد يكسبون قوت حياتهم عن طريق الاشتراك في المواجه المباشرة وجها لوجه لثنائيات من مثل هـذا النوع. انهم افراد يعرفون بعضهم جيدا، يتناولون الغـذاء معـا، يسهرون ويتناولون العشاء معا. (انظر يوميات جاك جويـار، " عام المخدوعين ANNEE DES DUPES الصادر عن دار SEUIL هذا العام، سترى كيف يتم ذلك). مثلا، في البرنامج التليفزيوني الـذي قدمه ديوران Durand حول موضوع النخب والذي شاهدته عـن قرب، كان كل هؤلاء الافراد حاضرين. كان هناك كل من جـاك أتالي، نيقولا ساركوزي، آلان منك... في لحظة معينـة تحـدث أتالي الى ساركوزي قائلا << نيقولا... ساركوزي >> ، كـانت هناك لحظات صمت بين الاسم الشخصي (الاسم الاول-نيقـولا) وبين اسم العائلة (ساركوزي) : اذا كان قد توقف عنـد الاسـم الاول (نيقولا) فإننا نرى على الفور أنهما شركاء في اللعبـة، ان كل منهما يعرف الاخر بشكل شخصي حميـم، بينمـا همـا على يظهران في البرنامج التليفزيوني على جانبين متعـارضين. لقـد كانت هناك اشارة صغيرة للتقارب يمكن ان تمر دون ان يفطـن اليها احد. في الواقع، ان العالم الذي يضم المدعوين الدائمين هـو

عالم مغلق على الذين يعرفون بعضهم بعضا، عالم يعمل وفقا لمنطق " الدعم الذاتي " المستمر. (المناظرة بين سيرج Serge July جولي وفيليب الكسندر Philippe Alexandre فى البرنامج الذى تقدمه كريستين أوكرنت Christine Ockrent أو فى محاكاته الساخرة التى يقدمها برنامج الجوينول ("بالمعكوس"برنامج يومي تقدمه القناة الرابعة قنال + ويسخر من الشخصيات العامة مثل رئيس الجمهورية ورجال السياسة الخ. م.) هو مثال نموذجي يظهر بشكل مكثف وجهة النظر هذه. انهم افراد يختلفون لكن بطريقة مصطنعة تماما... مثلا، جويار وامبير اختيرا ليمثلا اليسار واليمين على التوالي. فى الجزائر، يقول أهل القبائل عن الفرد الذي يتحدث عن خطأ وبالمعكوس (لقد وضع الشرق فى الغرب). انهم أناس يضعون لك اليمين فى اليسار. هل الجمهور مدرك لهذا التواطوء ؟ هذا ليس مؤكدا. فلنقل ربما. ان هذا يظهر على شكل الرفض التام لباريس (اى هيمنة العاصمة ،م.) الذى حاول النقد الفاشي للنزعة الباريسية ان يحتويه وعبر عنه العديد من المرات بمناسبة احداث نوفمبر ١٩٩٥ (حركة الاضرابات الكبرى التى وقعت فى هذا الشهر، م.) : <<ان كل هذا مجرد حكايات الباريسيين>>. انهم يشعرون جيدا ان هنالك شيئ ما، لكنهم لايرون الى اى حد هذا العالم هو عالم مغلق، منطوى على ذاته، وبالتالى مسدود أمام مشاكلهم بل وأمام وجودهم ذاته.

هناك ايضا ندوات تبدو ظاهريا انها حقيقية ، حقيقية بطريقة زائفة. سأحلل واحدة من هذه الندوات بشكل سريع: لقد اخترت الندوة التى نظمها كافادا Cavada (جان-مارى كافادا مقدم برنامج " مسيرة القرن " الاسبوعي بالقناة الثانية فى التليفزيون الفرنسي، م.) أثناء اضرابات نوفمبر لأنها تتمتع بكل مظاهر الندوة الديموقراطية، حتى يمكن ان ندرك معنى ذلك.

هكذا، عندما نرى مالذى تم اثناء هذه الندوة (اننى اريد ان اعمل بنفس الطريقة التى سلكتها حتى الان اى الذهاب بدءا من المرئي أكثر الى ما هو أكثر خفية)، سنرى سلسلة من عمليات الرقابة تتم على مستويات مختلفة.

المستوى الاول : الدور الذى يلعبه مقدم البرنامج. هذا الدور هو الذى يصدم مشاهدي التليفزيون دائما. يرى مشاهدو التليفزيون بوضوح ان مقدم البرنامج يقوم بتدخلات جبرية حاسمة. مقدم البرنامج هو الذى يفرض الموضوع، هو الذى يفرض الإشكالية (غالبا اشكالية بلا معنى كما فى مناظرة ديوران – << هل ينبغي حرق النخب ؟ >> – ان كل الاجابات سواء كانت بنعم أو لا هى بلا معنى كذلك.). مقدم البرنامج يفرض احترام قواعد اللعبة. قواعد لعبة ذات اشكال متغيرة : انها ليست نفس القواعد عندما يكون المتحدث احد النقابيين او عندما يكون مسيو بيريفيت Peyreffite عضو الاكاديمية الفرنسية. يقوم مقدم البرنامج بتوزيع الادوار على المتحدثين، يعطى الاشارات والتعليمات الهامة. حاول بعض علماء الاجتماع ان يكشفوا عن الإتصال الضمني، الحديث بلا كلمات الذى يتم أثناء الحوار بالكلمات: اننا نتحدث كثيرا عن طريق النظرات، الصمت، بالاشارات، الايماءات، بحركات العيون الخ، اكثر مما نتحدث بالكلام ذاته. كذلك نحن نتحدث بواسطة نبرات الصوت، بكل انواع الاشياء اننا نقدم بالتالى الكثير مما لانستطيع ان نتحكم فيه (من الواجب ان يزعج هذا اولئك المهوسين بمرآة نرجس). هناك الكثير من المستويات فى التعبير لا تصل الى مستويات التعبير المباشر بالكلام كما يقال – اذا ماتم التحكم فى مستوى النغمة الصوتية، فاننا لانتحكم فى مستوى التركيب النحوى للكلمات، وهكذا تباعا –، ليس هناك احد حتى ذلك الاكثر تحكما فى نفسه،

الاإذا كان يمثل ويلعب دورا ما أو يتحدث بلغة مراوغة مخادعة (فارغة من المعنى)، يمكن ان يتحكم فى كل شئ. يتدخل مقدم البرنامج نفسه مستخدما لغة لاواعية، طريقته فى طرح الاسئلة، نبرات صوته أثناء الحديث : سيقول للبعض فى لهجة جافة، << هل تريد ان ترد، انك لم ترد على سؤالى>> أو <<اننى انتظر ردك، هل ستذهب لاستئناف الاضراب ؟ >>. مثال آخر بالغ التعبير، الطرق المختلفة لقول كلمة << شكرا >>. مثلا يمكن ان تكون معبرة << اننى اشكرك، اننى عارف لجميلك واستقبل حديثك بحفاوة >>. لكن هناك " شكرا تقال كما يلى <<حسنا انتهى الحديث فلننتقل الى النقطة التالية>>. كل هذا يظهر بطريقة غاية فى الدقة، فى تموجات وظلال دقيقة للغاية لنبرات الحديث، لكن المتحدث يتحكم فى الحديث، انه يحصر الدلالة الظاهرية والدلالة الخفية ؛ يحاول ان يحصر الاثنين ويمكن ان يفقد امكانياته.

يوزع مقدم البرنامج الوقت على المتحدثين، انه يوزع حتى نبرة الحديث، حديث يلقى الاحترام والتقدير وحديث يواجه بالاستخفاف والازدراء، حديث يلقى الاهتمام والاصغاء او حديث يقال فى عجالة ونفاذ صبر. مثلا، هناك طريقة لقول << هاه.. ياه..هاه .. يها >> هذه التى تلقى بضغطها على المتحدث، تجعله يشعر بعدم الصبر او عدم اللامبلاة...(فى المقابلات التى نجريها، نعلم انه من المهم جدا ارسال بعض اشارات الموافقة او الاتفاق مع الافراد، اشارات تعكس الاهتمام، بدون ذلك سيفقدون الحماس ثم يهبط الحديث تدريجيا : انهم ينتظرون جملة من الاشياء الصغيرة مثل << نعم، نعم >> ، ينتظرون ايماءة من الرأس تعكس الاتفاق مع المتحدث وتشير الى متابعته والاصغاء اليه، بعض الاشارات الذكية كما يقال، هذه الاشارات الغير محسوسة

او الغير مدركة، يتلاعب بها مقدم البرنامج، وبطريقة لاواعية اكثر منها واعية فى معظم الاحيان الى حد كبير. على سبيل المثال، احترام المراتب الثقافية، فى الحالة التى يتحدث فيها احد العصاميين ممن كونوا ثقافتهم ومعارفهم دون تعليم او شهادات رسمية و دون خبرة مباشرة محددة بالثقافة، فان مقدم البرنامج يخلع عليه برضاء مبالغ فيه مكانة ثقافية زائفة، أما الاكاديميين، الافراد الذين يحملون درجات علمية فيظهرون بقدر من الاحترام الخاص، ثمة استراتيجية اخرى لمقدم البرنامج التليفزيوني : انه يتلاعب بالوضع الطارئ والعاجل ؛ يستخدم الزمن، تحت ضغط الالحاح، مؤشر الساعة، وذلك لكى يقطع الحديث، لكى يضغط علي المتحدث، بل ليقاطعه ويوقفه عن الحديث. هنا يلجأ مقدم البرنامج الى وسيلة اخرى، مثل كل مقدمى البرامج يجعل من نفسه متحدثا باسم جمهور المشاهدين : << اننى اقاطعك لاننى لاأفهم ماتريد ان تقوله>>. انه لايترك أية فرصة للظن بأنه جاهل أو أبله، لكنه يترك الاحساس بأن المشاهدين من العامة الذين هم بلهاء وفقا لما هو شائع، لن يفهموا هذا الحديث. انه يجعل نفسه متحدثا باسم هؤلاء << الأغبياء >> حتى يقاطع حديثا يتسم بالذكاء. فى الواقع، و يمكننى ان اختبر ذلك، الافراد المسموح لهم ممارسة هذا الدور من الرقابة، هم غالبا الافراد الاكثر سخطا وحنقا من ممارسات الحذف والقطع.

النتيجة بعد كل الحساب الذى تم حول هذا البرنامج التليفزيونى الذى استمر لمدة ساعتين هي أن ممثلي الفيدرالية العامة للشغل (نقابة ال CGT) قد تحدثوا لمدة خمس دقائق بالضبط، بما فى ذلك كل المداخلات والتعليقات على مداخلات الآخرين (والحال كذلك، فان كل الناس تعرف انه لولا وجود الCGT فان حركة الاضرابات لم تكن لتتم، وكذلك هذا البرنامج

التليفزيوني، الخ.). على الرغم مما يبدو، ولهذا فإن برنامج مسيو كافادا بالغ التعبير، كل ما هو خارج المساواة الشكلية قد تم احترامه.

ان ما يطرح مشكلة على جانب كبير من الاهمية تماما من وجهة نظر الديموقراطية هو: ان كل المشاركين ليسوا في نفس الوضع من المساواة على المسرح (البلاتوه). انت تجد العاملين في البلاتوه (المحترفين)، محترفي الحديث في البرامج التليفزيونية وفي مواجهتهم هناك الهواة (وهؤلاء يمكن ان يكونوا من العمال المضربين الذين يتجمعون حول لهيب الاخشاب المشتعلة للتدفئة و...) ان هذا وضع لعدم مساواة هائلة بشكل واضح. من اجل خلق بعض المساواة، يجب على مقدم البرنامج ان يكون غير عادل تماما كما فعلنا ذلك في بحثنا الميداني اثناء اعداد كتاب " بؤس العالم ". عندما يريد فرد ممن هم ليسوا من محترفي الحديث ان يقول بعض الاشياء (غالبا مايقول بالتالي اشياء رائعة تماما لا يفكر فيها هؤلاء الذين تعطى لهم امكانية الحديث لمدد طويلة)، يجب عمل نوع من جهد للمساعدة على التحدث. حتى يمكن ان ندرك مزايا ذلك الذى قلته، ساقول ان هذه هى المهمة السقراطية فى كامل أبعادها. ان ذلك يعنى ان توضع فى خدمة احد الافراد ممن لديه حديث هام وتريد ان تعرف ما الذى لديه ليقوله، ما الذى يفكر فيه، وأن تقوم بمساعدته على توليد هذه الافكار. اذا كان الامر كذلك، فان هذا ما لا يقوم به مقدموا البرامج التليفزيونية. انهم لايقومون بمساعدة اولئك الذين لايمتلكون امكانيات كبيرة للتعبير، بل واكثر من ذلك فانهم اذا امكن ان نقول ذلك، يقومون بسحقهم(تهبيط همتهم) بكل الوسائل والطرق العديدة يتم اعطائهم الكلمة فى اللحظة التى

لاينتظرونها على الاطلاق، و باظهار نفاذ صبرهم وعدم ارتياحهم الخ.

لكــن، نحن لازلنا هنا في المستوى الظاهرى. يجب ان نــتجه الــى المســتوى الثاني : تركيب البلاتوه. انه يلعب دورا حاسما. ثمة عمل غير مرئي تماما نتيجته ما نراه على البلاتوه من ترتيب وتنظيم. مثلا، هناك عمل كامل لتوجيه الدعوات مسبقا: ثمة افــراد لايدخلــون في قوائم المدعوين ؛ هناك افراد يتم دعوتهم ولكــنهم يرفضــون الحضــور. ها هنا مسرح العرض (البلاتوه) ومــاهو مدرك يخفى ما هو غير مدرك : اننا نرى فيما هو مدرك ومصــاغ بوضوح، الظروف الاجتماعية لهذه الصياغة. من هنا، لايقال مثلا <<تعال ان فلان لايوجد هنا>> . مثال على هذا النوع من التلاعب (مثال من بين الف مثال) : اثناء حركة الاضرابات، كانت هناك حلقتين متتاليتين من برنامج " حلقة منتصف الليل " (Cercle de Minuit ، بــرنامج يومى مباشر يقدم بعد نشرة اخبار منتصــف الليل وهوعلى شكل حلقة للنقاش بين المثقفين والفنانين حول موضوعات او نشاطات معينة الخ. م) وكان موضوع الحلقة هــو " المــثقفون وحركة الاضرابات ". كان هناك معسكرين بين المثقفين بشكل عام ودون الدخول في التفاصيل. في الحلقة الاولى، يظهــر المــثقفون المعارضون لحركة الاضرابات على اليمين – حتى يتم التقدم بسرعة – . في الحلقة الثانية (وهى استكمال للحلقة الاولــى)، تم تغيير تركيب البلاتوه، باضافة افراد اكثر الى اليمين واختفاء الافراد المؤيدين للاضرابات. ذلك يترتب عليه ان الافراد الذيــن كــانوا في موقع اليمين في الحلقة الاولى من البرنامج قد ظهــروا علــى اليســار في الحلقة الثانية. يمين ويسار، هذا شئ نسبي، وفقا للتعريف الشائع. وعلى ذلك، في هذه الحالة،

وعلى ذلك، فى هذه الحالة، فان تغيير تركيب بلاتــوه البرنــامج يؤدى الى تغيير فى مضمون الرسالة التى يمررها البرنامج.

ان تركيب البلاتوه يتسم بالاهمية لانه يعطى صورة عــن التوازن الديموقراطي (الحد الاقصى لذلك هو برامج المواجهــة (<<وجها لوجه>> : <<مسيو، لقــد انتــهت الثلاثيــن ثانيــة المخصصة لك...>>). يتم اظهار المساواة ويقوم مقدم البرنــامج بدور الحكم بين الطرفين. على بلاتوه برنــامج مســيو كافــادا (مسيرة القرن. م)، كان هناك نوعيــن مــن الافــراد : هنــاك النشطاء من الملتزمين المشاركين فى حركة الاضرابات ؛ ومــن ناحية اخرى هناك آخرين هم ايضا مشاركين فى الاضرابــات ؛ لكنهم وضعوا فى أماكن المشاهدين. كان هناك افــراد المــبرر الوحيد لوجودهم هو ان " يشرحوا " << لماذا تفعل هذا ؟ لمــاذا تسبب المتاعب للجمهور الــذى يســتخدم وســائل المواصــلات العامة ؟ الخ. >> ثم هناك آخرين مــبرر وجودهــم هــو <<ان يفسروا>> وذلك حتى يتم الاحتفاظ بنوع من الخطاب الانعكاسي.

ثمة عامل آخر غير مرئي ومع ذلك فهو حاسم تمامــا : الاستعدادات التى تم القيام بها مســبقا عــن طريــق محادثــات تحضيرية مع المشاركين المتوقعين، والتى يمكن ان تؤدى الــى نوع من السيناريو الجامد بشكل ما والذى يجب على المشــاركين فيه ان يحازى الواحد منهم الاخر (يمكن ان تأخذ الاستعدادات فى بعض الحالات كما هو الحال فى برامج الالعاب شكل بروفــات كاملة). فى مثل هذا السيناريو المتوقع مسبقا، ليس هناك محل من الناحية العملية لشئ غير متوقع، الا الحديث الحر ذو المخــاطر الكبيرة، الخارج عن الخط ان لم يكن يشكل خطرا علــى مقــدم البرنامج وعلى برنامجه.

خاصية اخرى غير مرئية فى هذا الفضـــــاء الاعلامـــى، منطق لعبة اللغة المستخدمة ذاته، كما يقول الفيلســـــوف. هنـــاك قواعد ضمنية لهذه اللعبة التى سيتم القيام بها، كـــل عـــالم مـــن العوالم الاجتماعية المختلفة ينتشر يدور فيه خطاب لـــه تركيـــب محدد بحيث يتبع ذلك ان هناك بعض الاشياء التى يمكن قولـــها واخرى لايمكن أن تقال. الافتراض الضمنى الاول للعبـــة اللغـــة هذه هو : الحوار الديموقراطى كما يتم التفكير فيه وفقا لنمـــوذج (المصارعة الحرة) ؛ يجب ان تكون هناك مواجهات وتحرشـات، الجيد (الافضل/الفائز) هو الاكثر وحشية وشراسة...فـــى نفـس الوقت، فان كل الضربات غير مسموح بـــها. يجـب ان توجـه الضربات ضمن منطق اللغة الشكلية المتفق عليها، اللغة العاقلـــة. الصفة الاخرى لهذا الفضاء الاعلامى : هى التواطؤ بين العاملين المحترفين فى التليفزيون الذين ذكرتهم حتى الان. اولئك الذيـــن اسميهم المفكرين -*على السريع* " *(Fast-thinkers)*، متخصصـــي ذلك النوع من التفكير الذى يستخدم لمرة واحدة ثم يلقى به بعـــد ذلك، هؤلاء المحترفين يطلق عليهم لقب << الزبائن الطيبين >>. افراد يمكن دعوتهم، لأننا نعرف انهم ذو تكوين جيد، لن يخلقـــوا المتاعب، عليك ان تبدأ برواية بعض الحكايات ثـــم بعـــد ذلـــك ستجدهم يتحدثون بغزارة ودون أية مشاكل. لدينا هنا عالم مـــن الزبائن الطيبين الذين يشبهون السمك فى الماء وهنـــاك آخـــرون يمكن القول انهم مثل السمك خارج الماء. بعد ذلك، ثمة شئ آخير غير مرئي ايضا، انه لاوعي مقدمي البرامج. يحضرني كثـــيرا حتى امام الصحفيين الذين يتمتعون بامكانيات واستعدادات جيـــدة جدا تجاهى، ان اكون مضطرا ببدء كل اجاباتى بوضع الســـؤال المطروح محل تساؤل. يطرح الصحفيون من خـــلال نظاراتـــهم (رؤيتهم)، من خلال مراتبهم الفكرية، أسئلة ليست لها اية صلـــة بأى شئ. مثلا، حول المشاكل المعروفة بمشاكل الضواحى، تجـــد

فى رؤسهم كل التصورات الخادعة التى اشرت اليها منذ قليـــل، وقبل ان ابدأ فى الاجابة على اسئلتهم، يجب ان اقـــول بطريقـــة مهذبة << ان سؤالك دون شك هام، ولكن يبدو لى ان هناك حول هذا الموضوع سؤال اكثر أهمية... >>، وعندما لا يكون قد تـــم اعدادهم بعض الشئ، نرد على الاسئلة التى لم يطرحونها.

توترات وتناقضات :

التليفزيون هو آداة للاعلام ذات استقلالية ضعيفة جدا يقع على كاهله سلسلة كاملة من المحددات والقيود التى تعـــود الـــى العلاقات الاجتماعية بين الصحفييـــن، <<علاقـــات تنـــافس>> ضارية وقاسية الى درجة الحمق واللامعقوليـــة، وهـــى ايضـــا علاقات <<تواطؤ>>، وتورطات موضوعية ترتكز علـــى المصالح المشتركة التى تعود الى المواقع التى يحتلونها فى مجال الانتاج الرمزي وعلى حقيقة اصولهم بشكل عام مـــن تركيبـــات معرفية، مستويات من الادراك والتقدير ترتبط كلـــها باصولـــهم الاجتماعية وبتكوينهم المهنى (او بعدم تكوينهم المهنى). يـــترتب على ذلك ان جهاز (أداة) ألاعلام هذا، أى التليفزيون، الذى يبـــدو مطلق العنان من حيث المظهر، هو جهاز مطيع ومقيد. بمجـــرد ان ظهر التليفزيون فى سنوات الستينيات كظاهرة جديدة ؛ فـــان عددا << من علماء الاجتماع>> (مع كثير مـــن الاقـــواس) قـــد تعجلوا ليقولوا ان التليفزيـــون باعتبـــاره وسـيلة << للاعـــلام الجماهيرى >> قد <<اصبح جماهيريا>>. لقد اعتبر التليفزيـون كجهاز محايد، يؤدى الى تجانس تدريجى لجميع المشاهدين. فـــى الواقع، لقد تم اساءة تقدير القدرة على المقاومة. ولكن على وجـــه الخصوص أسئ تقدير القدرة التى امتلكها التليفزيون على تحويـــل

اولئك الذين ينتجونه، وبشكل عام الصحفيين الآخرين ومجموع المنتجين الثقافيين (من خلال الولع الذى لايقاوم الذى مارسه على بعض منهم). الظاهرة الاكثر اهمية والتى كانت صغيرة وبعيدة جدا عن التوقع، هى الامتداد الهائل لهيمنة التليفزيون على مجمل انشطة الانتاج الثقافي بما فيها انشطة الانتاج العلمي أو الفني. لقد دفع التليفزيون اليوم الى مدى بعيد، الى أقصى حد، تناقض مس كل مجالات الانتاج الثقافي. أود ان اتحدث عن التناقض بين الشروط الاجتماعية والاقتصادية التى يجب ان توضع فيها حتى يمكن انتاج انواع معينة من الاعمال (لقد ذكرت مثال الرياضيات لانه الاكثر وضوحا، لكن ذلك صحيح ايضا فيما يتعلق بالشعر الطليعي، بالفلسفة، بعلم الاجتماع،الخ)، اعمال يطلق عليها صفة <<اعمال خالصة>> (وهى كلمة مضحكة)، فلنقل، استقلالية بالنسبة للضرورات التجارية، الخ، ومن ناحية اخرى، الظروف الاجتماعية لنشر وتوزيع الانتاج الذى تم الحصول عليه فى مثل هذه الظروف ؛ انه تناقض بين الشروط التى يجب ان تكون فيها حتى يمكنك انجاز ابداع فى الرياضيات الرائدة، فى الشعر الرائد، الخ وبين الظروف التى يجب ان تكون فيها حتى يمكن نشر وتوزيع هذه الاشياء الى كل الناس. لقد دفع التليفزيون هذا التناقض الى حده الاقصى بالقدر الذى يخضع فيه اكثر من اى مجالات اخرى من مجالات الانتاج الثقافي، للضغط التجاري عبر تحقيق نسبة الاقبال العالية (الاوديمات).

بنفس القدر، فى هذا العالم الصغير، أى عالم الصحافة، فان التوترات على درجة كبيرة بين هؤلاء الذين يريدون حماية قيم الاستقلالية، الحرية فى مواجهة التجارة والطلب والمسؤلين الخ، وبين اولئك الذين يخضعون للضرورة، الذين يقبضون مقابل ذلك... هذه التوترات لا يمكنها ان تعبر عن نفسها على الاقل

على شاشات التليفزيون، لأن الظروف ليست ملائمة جدا : انني افكر مثلا فى التناقض بين المشاهير الكبار من ذوى الثروات الطائلة،المرئيين بشكل خاص والذين لهم اعتبار خاص، لكن ايضا وبشكل خاص فإنهم يخضعون، وبين العاملين الغير مرئيين من ناحية أخرى، اولئك الذين يعملون فى مجال المعلومات، فى إعداد تقارير نقدية أكثر فاكثر، هؤلاء الذين يتم تأهيلهم بشكل افضل فافضل وفقا لواقع منطق سوق العمل، انهم يوظفون فى اشياء متنقلة غير ثابتة بشكل متزايد، غير ذات معنى بشكل متزايد. هناك خلف الميكروفونات والكاميرات افراد اكثر ثقافةومعرفة بشكل لايقارن من نظرائهم خلال سنوات الستينات، بتعبير آخر، هذا التوتر بين ما هو مطلوب من المهنة وبين التطلعات والآمال التى يتحصل عليها الافراد فى معاهد ومدارس الصحافة او فى الكليات الجامعية هى توترات كبيرة بشكل متزايد. - على الرغم من ان هناك ايضا تكيف مسبق يقوم به الافراد بقدر كبير من الجهد... لقد ذكر احد الصحفيين فى وقت قريب ان ازمة سن الاربعينات (فى سن الاربعين نكتشف ان المهنة ليست على الاطلاق تلك التى كنا نظنها)، ، قد اصبحت ازمة سن الثلاثين. يكتشف الافراد اكثر فاكثر فى وقت مبكر الضرورات الرهيبة للمهنة وبوجه خاص كل الحدود المفروضة والملازمة لظاهرة الأوديمات (نسبة الاقبال) الخ. ان مهنة الصحافة هى من المهن التى نجد فيها بشكل اكثر افرادا يعانون من القلق، غير راضين، متزمرين او مستسلمين فى سخرية، حيث يتم التعبير عموما (على وجه الخصوص من جانب اولئك المهيمن عليهم بطبيعة الحال) عن الغضب والاشمئزاز او الاحباط امام واقع عمل يستمرون فى ممارسته أويعلنون انه عملا << ليس مثل الأعمال الآخرى>>. لكننا بعيدين عن وضع يمكن لهؤلاء المستبعدين أو الخاضعين ان يأخذوا فيه شكل

المقاومة الحقيقية، المقاومة الفردية وعلـــى وجـــه الخصـــوص المقاومة الجماعية.

لفهم كل ذلك الذى طرحته والذى يمكن ان نعتقـــد فيـــه، على الرغم من كل الجهود التى بذلتها لتوضيح المسؤلية الفرديـــة لمقدمي البرامج، الذين يقومون بمهمة الاعلام والاتصال، يجـــب الانتقال الى مستوى الآليات الكلية، الى مستوى البنية و التركيب. قال افلاطون (اننى استشهد به كثيرا اليوم) اننا مجرد عرائس فى يد الآلهة. ان التليفزيون هو عالم يجسد لدينا الانطباع بـــأن كـــل الشركاء الاجتماعيين بكل مايتمتعون به مـــن مظـــهر الاهميـــة والاحترام، الاستقلالية وحتى احيانا هالات رائعة خارقة للعـــادة (يكفى ان نتابع نشرات الاخبار فى التليفزيون) هم دمى لضرورة من الواجب شرحها، دمى لبنية يجب التحلل منها واخراجها الـــى النور.

٢

البنية الخفية وتأثيراتها

حتى نذهب الى ما هو ابعد من مجرد وصف مـــايحدث على مسرح التليفزيون، مهما كان هذا الوصف بالغ الدقة، ومـــن اجل محاولة الامساك بالآليات التى تفسر سلوكيات الصحفييـــن، يجب العمل على ادخال تعريف فنى الى حد ما لكننـــى مضطـــر لاســـتخدامه، ذلـــك هـــو تعريـــف المجـــال الصحفـــي champ journalistique . ان عالم الصحافة هو عالم صغير له قوانينـــه الخاصة وهو يعرف بوضعه فى العـــالم الكلـــي، وبالتجاذبـــات والتنافرات التى يخضع لها من جانب عوالم صغـــيرة اخـــرى. القول بأن عالم الصحافة عالم مستقل، بأن له قانونه الخاص، ذلك يعنى ان هذا الذى يحدث لا يمكن ان يفهم بطريقة مباشرة بـــدءا من عوامل خارجية. هنا كان الاعتراض على الافتراض الـــذى قدمته على تفسير مايحدث فى عالم الصحافة بواســـطة عوامـــل اقتصادية بحتة. مثلا، لايمكن تفسير ذلك الذى يحدث فى القنـــاة التليفزيونية الاولى TF1 بمجرد حقيقة ان هـــذه القنـــاة مملوكـــة لشركة بويج فقط. من الواضح ان اى تفسير لايأخذ فى حســـابه هذه الحقيقة سيكون تفسيرا غير كافيا لكن ذلك الذى لا يأخذ فـــى الحسبان الا هذا العامل فقط سيكون ايضا تفسيرا غير كافيا وربما أكثر من غير كافى لانه سيعطى الانطباع بان ذلك كافيا. هنـــاك نوع من المادية القصيرة الامد (المحـــدودة)، ملازمـــة للتقـــاليد الماركسية التى لاتشرح ولاتفسر اى شئ، والتى ترفض دون ان توضح أى شئ.

المنافسة وحصص السوق :

حتى نفهم ذلك الذى يحدث فى القناة التليفزيونية الاولى TF1 ، يجب الاخذ فى الاعتبار كل ماهو مطلوب من هذه القناة ان تفعله مع حقيقة انها توجد في عالم من العلاقات الموضوعية القائمة بين القنوات التليفزيونية المتنافسة المختلفة، لكن هذا التنافس يحدد فى شكله، وفى طريقته الغير مرئية بواسطة علاقات قوى غير واضحة وغير مدركة يمكن ان تحدد من خلال مؤشرات ودلائل مثل تلك الخاصة بنسبة حصة هذه القناة من السوق، بوزنها تجاه المعلنين، برأس المال الجماعى للصحفيين المشهورين ذوى النفوذ من العاملين فيها، الخ. بتعبير آخر، ان مابين هذه القنوات التليفزيونية ليس فقط مجرد تفاعلات، أفراد يتخاصمون او لا، أفراد يمارسون النفوذ، يقومون بالقراءة والإطلاع على ما يقوم به الآخرون، بالإضافة الى كل الذى عرضته حتى الان، لكن هناك ايضا علاقات قوى خفية غير مرئية تماما تجعل من الضروري أن تؤخذ فى الاعتبار مجمل علاقات القوى الموضوعية التى توجه المجال، ذلك حتى نفهم حقيقة مايحدث فى القناة الاولى TF1 أو فى القناة الفرنسية الالمانية ART. فى مجال المؤسسات الاقتصادية مثلا، يمكن لشركة ذات نفوذ وقوة كبيرين ان تشوه الفضاء الاقتصادى فى كليته تقريبا ؛ يمكنها بواسطة خفضها للاسعار ان تمنع دخول أطراف جدد الى هذا المجال، يمكنها ان تنشأ نوع من القيد او العائق يمنع الدخول فى المجال. هذه التاثيرات ليست بالضرورة نتاج ارادة قصدية. لقد غيرت القناة الاولى TF1 من شكل النشاط المرئي السمعي بسبب حقيقة بسيطة هى انها قد راكمت وجمعت مجموعة من القوى الخاصة التى تمارس نفوذها على هذا العالم و تترجم فعليا من خلال حصتها فى السوق. هذه البنية (التركيب)

لاتلاحظ من جانب مشاهدي التليفزيون/ ولا من جانب الصحفيين؛ انهم يتلقونها ويستقبلون تأثيراتها، لكنهم لايرون الى اى حد يثقل الوزن النسبي للمؤسسة التى يعملون فيها بكاهله عليهم، وبالتالى على مكانتهم ووزنهم داخل هذه المؤسسة. لكى نحاول فهم ذلك الذى يمكن ان يقوم به احد الصحفيين، يجب ان نأخذ فى تفكيرنا سلسلة من المحددات (العوامل) : من ناحية وضع المؤسسة الصحفية التى يعمل بها، قناة TF1 أو صحيفة اللوموند مثلا، داخل المجال الصحفى، ثانيا وضعه الشخصي الخاص داخل الصحيفة أو القناة التليفزيونية التي يعمل بها.

المجال هو عبارة عن فضاء اجتماعى مشيد، مجال تفاعل للقوى – داخل هذا المجال هناك المهيمنين والخاضعين للهيمنة، هناك علاقات ثابتة ودائمة من عدم المساواة تمارس داخل هذا المجال – هو ايضا مجال للصراع من أجل تغيير بنية المجال أو الاحتفاظ بالوضع القائم. كل فرد داخل هذا العالم يوظف عبر منافسته للآخرين القوة النسبية التي يمتلكها والتى تحدد وضعه داخل المجال وبالتالى طبيعة أهدافه الاستراتيجية. المنافسة الاقتصادية بين قنوات التليفزيون أو بين الصحف من اجل كسب المشاهدين او القراء او كما يقال كسب حصة من السوق، هذه المنافسة تكتمل بشكل محدد على هيئة منافسة بين الصحفيين، منافسة لها رهاناتها الخاصة بها، لها خصوصياتها، " الإثارة الصحفية "، المعلومات المتفردة، السمعة والشهرة فى وسط المهنة، الخ، وهذا لا يحدث ولا ينظر اليه باعتباره صراع اقتصادى بحت من اجل الكسب المالى فقط، لأنه فى نفس الوقت يظل خاضعا للقيود والمحددات التى تعود الى وضع المؤسسة الصحفية داخل شبكة علاقات القوى الاقتصادية والرمزية. توجد اليوم علاقات موضوعية غير مرئية بين الافراد الذين يمكن الا يلتقوا على الإطلاق، بين صحيفة لوموند ديبلوماتيك، وبين القناة

الأولى TF1 حتى ناخذ مثال متطرف، لكنهم توصلوا الى أن يأخذوا فى اعتبارهم الحدود المفروضة والتأثيرات التى تمارس عليهم فيما يقومون به وذلك لمجرد انهم يوجدون فى نفس العالم، سواء كان ذلك بشكل واع او لاواع. بتعبير آخر، اذا اردت ان اعرف اليوم ذلك الذى سيقوله او سيكتبه صحفى ما، ذلك الذى سيجده واضحا جليا او غير قابل للتفكير او التصور، ذلك الطبيعى او الغير لائق حسب رؤيته، يجب على ان اعرف الموقع الذى يحتله داخل هذا الفضاء، اى القوة الخاصة التى تتمتع بها المؤسسة الصحفية والتى تقاس من بين محددات وعوامل اخرى بوزنها الاقتصادى، بنصيبها من السوق، لكن ايضا بوزنها الرمزي الذى يصعب تحديده كميا بشكل كبير (فى الواقع، وحتى نكون كاملين، من الواجب الاخذ فى الاعتبار موقع المجال الاعلامي القومي داخل المجال العالمي وعلى سبيل المثال، الهيمنة الاقتصادية/التكنولوجية، وخصوصا الهيمنة الرمزية للتليفزيون الامريكي والذى هو نموذج ومصدر للافكار، للاشكال، وللممارسات بالنسبة لكثير من الصحفيين.

حتى نفهم بشكل افضل هذا التركيب فى صورته الحالية، من الافضل اعادة انتاج تاريخ العمليات التى تم تكوينه بفضلها. خلال سنوات الخمسينيات كان التليفزيون موجودا بالكاد داخل المجال الصحفي ؛ بمجرد ان نتحدث عن الصحافة فاننا نفكر بالكاد فى التليفزيون. لقد كان العاملين فى التليفزيون خاضعين لهيمنة مزدوجة : بشكل خاص واقع انه يشك فى كونهم معتمدين على او خاضعين للسلطات السياسية، لقد كانوا خاضعين من وجهة النظر الثقافية، الرمزية، من وجهة نظر الوجاهة والمكانة، كما كانوا ايضا خاضعين اقتصاديا بالقدر الذى كانوا فيه معتمدين على الدعوم المقدمة من الدولة وبالتالى فهم اقل فعالية وقوة بقدر كبير. مع مرور السنين (ستوصف العملية بالتفصيل)، انقلبت

العلاقة تماما وسعى التليفزيون الى ان يكون مـــهيمنا اقتصاديـــا ورمزيا داخل المجال الصحفي. هذا الوضع يتضح علـــى وجـــه الخصوص في ازمة الصحف : هناك صحف قد اختفت، صحـف اخرى اجبرت على ان تطرح فى كل لحظـــة التســاؤل حـــول استمراريتها، حول التوسع وتعزيز مكانتها او اعادة توسيع نســبة الاقبال، ذلك ان الاكثر تعرضا للتهديد، على الاقل فـــى فرنســا، كان هؤلاء الذين يقدمون بشكل اساسي الاحداث المتفرقة واخبـار الرياضة الذين لم يكن لديهم شئ كبير ليواجهوا بـــه التليفزيـــون الذى كان يتمحور شيئا فشيئا نحوهذه الاهداف بقدر ما كان يفلـت من سيطرة الصحافة الجادة (تلك التى وضعت او تضع فى المحل الاول وعلى صفحاتها الاولى اخبار السياسة الخارجية، الاخبـــار السياسية ان لم يكن التحليل السياسي، مقلصة ومختزلة الاخبـــار المتنوعة واخبار الرياضة الى الحد المناسب).

ان الذى اقدمه هنا هو وصف فظ، من الواجب الدخـــول فى التفاصيل، عمل تاريخ اجتمـــاعى لتطـــور العلاقـــات بيـــن المؤسسات الصحفية المختلفة (وليس لمؤسسة صحفية واحـــدة — وهذا لايوجد للاسف). ذلك ان الاشياء الاكثر اهمية لاتظـــهر الا على مستوى التاريخ البنيوي لمجمل المجال. ان ما يتـــم عمـــل حساب له فى مجال ما هو الأوزان النســـبية: يمكـــن ان تظـــل صحيفة ما متماثلة تماما، لا تفقد اى قارئ من قرائها، لاتغير اى شئ وتكون مع ذلك قد تغيرت بعمق لان مكانتها النسبية داخـــل الفضاء تكون قد تغيرت. مثلا، صحيفة تكـــف عـــن ان تكـــون مسيطرة ومهيمنة بمجرد ان قدرتها على تبديل شكل هذا الفضـــاء من حولها تقل وانها لم تعد تفرض قانونها على المجال. يمكـــن القول انه فى عالم الصحافة المكتوبة، فان صحيفة مثل صحيفـــة اللوموند هى التى تفرض القانون. لقد كان هناك مجال، مع كـــل المعارضة التى يبديها مؤرخو الصحافة، بين الصحف التى تمـــد

وتزود " بالاخبار News " ، بالمعلومات، بـــالاحداث المتفرقـــة، وبين الصحف التى تقـــدم " رؤى او وجهـــة نظـــر Views " ، وجهات نظر و تحليلات، الـــخ؛ بيـــن الصحـــف ذات التوزيـــع والانتشار الواسع مثل صحيفة فرانـــس ســـوار والصحـــف ذات التوزيع المحدود نسبيا لكنها تملك سيطرة شبه رسمية. لقد كـــانت صحيفة اللوموند فى وضع جيد بالنسبة للعلاقتين : كانت كبـــيرة بقدر كافي بالنظر الى توزيعها لكى تصبح قوة وفقا لوجهة نظـــر المعلنين وتمتلك راس مال رمزي كافي لتكون بمثابة سلطة. لقـــد جمعت وراكمت كل من عاملي القوة داخل المجال.

لقد ظهرت صحف الفكر والتأمل مع نهاية القرن التاســـع عشر كرد فعل ضد الصحف ذات التوزيـــع الكبـــير والجمـــهور الواسع، ذات الاتجاهات التـــى كـــانت تســـبب دائمـــا الخـــوف والاشمئزاز من جانب القراء المطلعين. ان ظهور آداة (وســـيلة) جماهيرية بلا منازع، اى التليفزيون، ليست بظاهرة جديدة، علـــى الاقل بالنسبة لاتساعها وشيوعها. اننى افتح هنـــا قـــوس : احـــد ألمشاكل الكبرى لعلماء الاجتماع، هى تجنب الوقوع فى شـــكل او آخر من الاوهام المتشابهة، مثل وهم << اننا لم نرى ذلك علـــى الاطلاق >> (هناك علماء اجتماع مولعين بذلك، أمر لطيف جدا، خصوصـــا عندما يعلنوا فى التليفزيون عن ظواهر خارقة، عـــن ثورات)، أو الوهم الآخر << ان الامر كان هكذا دائمـــا>> (و هو بالاحرى من فعل علماء الاجتماع المحافظين : << لا جديـــد تحت الشمس، سيكون هناك دائما مـــن يســـيطرون ومـــن هـــم خاضعين للسيطرة، الاغنياء والفقراء،...>>). ان الخطر دائمـــا كبير جدا ، اكبر بمرات عديدة من المقارنة بين الفترات المختلفـــة وهى مقارنة غاية فى الصعوبة : لا يمكن ان نقارن الا بين بنيـــة وبنية (تركيب وتركيب / بناء وبناء)، ونخاطر دائما بالوقوع فـــى الخطأ عندما نصف شئ خارق بشئ تافه او لاقيمة له، ببســـاطة

بسبب من الجهل وعدم الخبرة. هذا واحد من الاسباب التى تجعل الصحفيين افرادا خطرين احيانا : لم يكونوا دائما على علم بشكل جيد، انهم يدهشون من اشياء غير مدهشة جدا ولا يدهشون من اشياء مذهلة... ان التاريخ لاغنى عنه لنا نحن علماء الاجتماع ؛ للاسف فى كثير من المجالات، وخصوصا مجال تاريخ الحقبة الحديثة، فان الاعمال مازالت غير كافية، خصوصا عندما يتعلق الامر بظواهر جديدة مثل ظاهرة الصحافة.

قوة للابتزال :

حتى نعود الى مشكلة تاثيرات ظهور التليفزيون، نقول انه من الحقيقى ان المعارضة كانت موجودة بالفعل، لكنها لم تكن مطلقا بمثل هذه الكثافة (اننى اقيم نوعا من المساومة بين << لم نرى ذلك على الاطلاق >> وبين << ان الامر كان هكذا دائما >>. يلقى التليفزيون بسبب قدرته على الانتشار بمشكلة رهيبة فعلا على عالم الصحافة المكتوبة وعلى عالم الثقافة بشكل عام. ان الصحف الجماهيرية الواسعة الانتشار التى تسبب الارتجاف والغيظ تبدو بجانبه شيئا ضئيلا (قدم رايموند وليامز Raymond Williams الافتراض القائل بان جميع الثورات الرومانسية فى الشعر قد حدثت بسبب من الرعب الذى الهم الكتاب الانجليز وادى الى ظهور الصحافة الجماهيرية). بسبب اتساع انتشاره ووزنه الخارق للعادة فعلا، ينتج التليفزيون تاثيرات مستحدثة تماما بالاضافة الى انها غير مسبوقة.

مثلا، يمكن للتليفزيون ان يجمع حول نشرة اخبار الثامنة مساءا عددا من المشاهدين اكثر من كل هؤلاء الذين يطلعون على كل صحف الصباح والمساء مجتمعين. اذا ما اصبحت المعلومات التى يقدمها وسيط مثل اخبار الحافلة العامة التى

يتناقلها الجميع دون مشقة ما، متجانسة متماثلة، فاننا لا نلبث ان نرى التأثيرات السياسية والثقافية التى يمكن ان تنتج عن ذلك.
ثمة قانون نعرفه جيدا : كلما ارادت آداة صحفية او وسيلة تعبير ايا كانت ان تصل الى جمهور مستهدف، كلما وجب عليها ان تفقد الكثير من حدتها، كل ذلك الذى يسبب الانقسام يستبعد - فلنفكر فى مجلة باري ماتش Paris match - ، كذلك يتوجب عليها ان تلتزم اكثر << بالا تصدم احدا >> كما يقال، الاتسبب مشاكل علي الاطلاق او مجرد مشاكل بلا اهمية. فى الحياة اليومية، نتحدث كثيرا عن المطر وعن حالة الطقس، لان هذه هى المسألة التى لن يتنازع حولها احد على وجه التاكيد - الا اذا كنت تتحدث مع احد المزارعين الذى يحتاج الى المطر بينما انت تقضى اجازتك، ان هذا هو الموضوع الناعم اللطيف بلا منازع. كلما حققت صحيفة ما تهدف اليه من توزيع، كلما اتجهت اكثر فاكثر نحو الموضوعات العامة التى لاتثير اية مشاكل. هنا يتم صنع (انشاء) الموضوع - بالتوافق مع درجات ادراك المتلقى (المستقبل / القارئ).

هذا ما يجعل العمل الجماعي الذى يسعى الى التجانس والتماثل والتسطيح، الى<<الامتثالية>> والى <<عدم التسييس>>، الى آخر ذلك الذى أتيت وصفه، يصبح عملا مناسبا تماما،على الرغم من ان أحدا لايرغب فيه، كما ان احدا لم يفكر فى الموضوع المفروض عليه أيا كان هذا الموضوع، ولم يرغب مطلقا فى تلقيه بهذا الشكل من احد أيا كان ذلك الذى يقدمه اليه. هذا شئ نلاحظه كثيرا فى الحياة الاجتماعية : نرى وقوع اشياء لايريدها احد ويمكن ان تبدو كما لو انها كانت مرغوبة (<<حدث هذا من اجل>>). هنا يصبح النقد المبسط خطرا : انه يعفى من بذل كل عمل يجب القيام به لفهم ظواهر لم يرغب فيها احد فعلا، و دون ان يكون الأفراد الذين يمولون هذه الأعمال قد

تدخلوا فعلا، ويحدث ان نرى هذا المنتج شديد الغرابة وهو <<نشرة الأخبار التليفزيونية>>، التى ترضى جميع الناس، التى تؤكد على اشياء معروفة من قبل، وخصوصا لأنها تترك التكوينات العقلية سليمة لا تمس. توجد ثورات تمس القواعد المادية لمجتمع ما، تلك التى نعرفها بالعادية – تؤمم ثروات رجال الدين مثلا– وهناك ثورات رمزية، تلك التى يمارسها القانون، العلماء او كبار الانبياء الذين يبشرون بالأديان أو احيانا وبشكل اكثر ندرة، أنبياء السياسة الكبار، الذين يمسون التكوين العقلي، أى الذين يغيرون من طرق رؤيتنا وطرق تفكيرنا. هذه هى الحال فى مجال الرسم عند مانيه Manet الذى اثار معارضة أساسية، تركيب يرتكز عليه كل التعليم الاكاديمي، المعارضة بين المعاصر والقديم. اذا ما تمحورت آداة قوية الى هذا الحد مثل التليفزيون قليلا تجاه ثورة رمزية من هذا النوع، فاننى اؤكد لكم بانه سيتم التعجيل بايقافها... والحال أن التليفزيون يوجد فى وضع لا يقوم فيه بشئ من كل ذلك دون ان يحتاج الى ان يطلب منه احد شيئا، فقط بسبب منطق المنافسة، وبسبب من الآليات التى عرضتها. ان التليفزيون قد تم ضبطه بشكل تام وفقا للبنى العقلية للعامة. يمكننى ان اصف النزعة الاخلاقية فى التليفزيون، الجانب <<التليتوني>> والذى يجب تحليله ضمن هذا المنطق. <<بمشاعر طيبة كما يقول اندريه جيد ننتج الادب السئ>>، لكن بمشاعر طيبة<< تم خلق الاقبال >>. من الضروري ان يتم التفكير فى النزعة الاخلاقية للافراد العاملين فى التليفزيون : غالبا على قدر من الفظاظة والصلف، يتمسكون بافتراضات امتثالية اخلاقية استثنائية وغير عادية تماما. لقد اصبح مقدموا نشرات الاخبار التليفزيونية، ومقدموا برامج الندوات، والمعلقون الرياضيون، اصبحوا جميعا بمثابة مديرين صغار للوعي الذى يصنعونه، لقد أصبحوا دون ان يبذلوا جهدا كثيرا من اجل ذلك،

المتحدثين الرسميين باسم اخلاق برجوازية صغيرة تماما، تلك التى تردد<< هذا مايجب ان تفكر فيه>> فيما يتعلق بما يطلقون عليه << مشاكل المجتمع >>، أى الاعتداءات فى مناطق الضواحى او العنف فى المدارس. ان نفس الشئ صحيح فى مجال الفن والادب : البرامج المعروفة بالبرامج الادبية، البرامج الاكثر شهرة منه بينها تخدم – وبطريقة تقليدية اكثر فاكثر – القيم السائدة، الامتثالية والنزعة الاكاديمية، او قيم السوق.

ترجع أهمية الصحفيين – من الواجب قول المجال الصحفى – فى المجال الاجتماعى الى واقع انهم يمتلكون احتكار الحدث المفروض على ادوات انتاج وتوزيع المعلومات الواسعة الانتشار، ومن خلال هذه الادوات، فإنهم يحتكرون امكانيات الوصول الى المواطنين البسطاء ولكن ايضا احتكار ادخال منتجين آخرين للثقافة، من علماء، فنانين، كتاب الى مايسمى احيانا << المجال العام >> (الحياة العامة) اى مجال التوزيع الواسع الانتشار. (ضد هذا الاحتكار تتم المواجهة عندما ترغب سواء كفرد او كعضو فى جمعية او فى تجمع ايا كان، فى نشر معلومة ما على نطاق واسع). على الرغم من انهم يحتلون مواقع متدنية مهيمن عليها فى مجال الانتاج الثقافي، الا انهم يمارسون نوعا نادرا تماما من الهيمنة : ان لديهم السلطة على أدوات التعبير العام، سلطة ان يكون لك وجود عام، ان تكون معروفا، ان تعبر الى *الشهرة العامة* (وهو ما يعتبر بالنسبة لرجال السياسة وبالنسبة لبعض المثقفين بمثابة تحدى أو مغامرة رئيسية). ان هذا هو مايجعلهم يرغبون فى أن يونوا محاطين (على الاقل الاكثر قوة من بينهم) بهالة من الاعتبار غالبا غير متجانسة ولا متناسبة مع مؤهلاتهم الفكرية... وهم يستطيعون ان يوجهوا جزءا من هذه السلطة المكرسة لهم باتجاه مصلحتهم (واقع ان الصحفيين وحتى الاكثر شهرة من بينهم فى

وضع متدنى بنيويا بالنسبة للفئات التى يمكن ان تسيطر على المواقف من وقت لآخر، مثل المفكرين - وبعضهم لايهمه الخضوع والدخول فيما هو سائد - وكذلك ورجال السياسة، كل ذلك يساهم دون شك فى تفسير ميلهم الدائم المعادي للنزعة الثقافية.).

لكن وبشكل خاص، ان تكون قادرا على الظهور دائما فى الحياة العامة، أن تعبر عما تريد على نطاق واسع، فذلك شئ لا يمكن التفكير فيه بالنسبة لمن ينتج عمل ثقافي حتى ولو كان مشهورا، على الأقل حتى ظهور التليفزيون، ان باستطاعة هؤلاء ان يفرضوا على كل المجتمع المبادئ التى ينطلقون منها فى رؤيتهم للعالم، ان يفرضوا اشكالياتهم، ووجهات نظرهم. سيعارضوننا بالقول بان العالم الصحفي عالم منقسم، مختلف، متنوع وبالتالى فهو مؤهل للتعبير عن كل الآراء، كل وجهات النظر او تقديم فرصة للتعبير عنها (من الحقيقى انه لكى تعبر الشاشة الصحفية، يمكن اللعب حتى نقطة معينة، بشرط ان تمتلك حدا ادنى من الوزن الرمزي، من التنافس بين الصحفيين وبين الصحف). لكن يبقى ان المجال الصحفى مثله مثل المجالات الاخرى يرتكز على مجموعة من الافتراضات المسبقة والمعتقدات المشتركة (بجانب الاختلافات فى المواقف الأرء). هذه المسلمات التى سجلت فى نظام معين من مستويات الفكر، ذات علاقة معينة مع اللغة، مع كل ذلك الذى يتطلب على سبيل المثال تعريفا مثل <<يظهر جيدا على شاشة التليفزيون>>، كل تلك الاشياء هى فى أسس ومبادئ الاختيار الذى يمارسه الصحفيون فى الواقع الاجتماعي، وايضا فى مجمل عملية الانتاج الرمزي. ليس هذا بخطاب (تحليل علمي، بيان سياسي، الخ) ولا هو بفعل (مظاهرة، اضراب، الخ) الذى لا يحتاج الى هذا الإختبار الصحفي حتى يصل الى الحوار العام، أى انه لا يحتاج

الى الخضوع لهذه *الرقابة* الهائلة التى يمارسها الصحفيـون دون حتى ان يعلموا ذلك، انهم لا يحتفظون الا بذلك الذى يستطيع ان يجنب *اهتمامهم*، بذلك الذى << يهمهم >>، اى، الـذى يدخل ضمن اطار فئاتهم، فى شبكاتهم، مغفلين فى سذاجة او اللامبالاة تعبيرات رمزية تستحق ان تصل الى جميع المواطنين.

نتيجة اخرى الامساك بها هو اكثرصعوبة، وهى تزايد الوزن النسبي للتليفزيون في مجال وسائل التوزيع والانتشار، كما ان ثقل القيود التجارية المفروضة على هذا التليفزيون اصبحت مهيمنة، ان العبور الىتحقيق سياسة للعمل الثقافي من خلال التليفزيون، الي نوع من الديماجوجيا الطوعية (والتى تتأكد بشكل خاص و بوضوح في التليفزيون ولكنها تمس ايضا الصحف المعروفة بانها جادة : تلك التى تخصص مساحة اكبر فاكبر لهذا النوع من رسائل القراء التى هى بمثابة المنابر الحرة، الآراء الحرة). لكن تليفزيون سنوات الخمسينيات رغب ان يكون تليفزيونا ثقافيا ورغب بشكل ما وبسبب من احتكاره الى ان يفرض على كل الانتاج الصبغة الثقافية (البرامج التسجيلية والوثائقية، اقتباس الاعمال الكلاسيكية، الندوات الثقافية، الخ) وشكل اذواق الجمهور الواسع : تليفزيون سنوات التسعينات يهدف الى استغلال وتملق هذه الاذواق حتى يحقق الاقبال الاكثر انتشارا وذلك بتقديمه الى المشاهدين انتاج فظ يتجسد نموذجه فى *المشاهد السريعة* ، شرائح من الحياة، استعراضات للتجارب المعاشة دون اقنعة، غالبا متطرفة ومعدة لتناسب ارضاء نوع من نزعة البصبصة والتلصص والميول الاستعراضية (كما هو الحال من جانب آخر فى الالعاب التليفزيونية التى يهرع الى الاشتراك فيها حتى المشاهد البسيط لكى يعبر الى وضع ان يكون مرئيا ولو للحظة عابرة). هذا يعني اننى لااشارك البعض الحنين الى التليفزيون التعليمي – الابوى الذى كان موجودا فى الماضي

واننى اعتقد انه لايعارض على الأقـــل الا التلقائيـــة الشـــعبوية والخضوع الدوجمائي للاذواق الشعبية، الا استخدام ديموقراطـــي بشكل حقيقي لوسائل الاعلام ذات الانتشار الواسع.

صراعات يحكمها الاوديمات :

يجب اذن الذهاب الى ما وراء المظاهر، الى ماهو أبعـــد مما نشاهده على بلاتوه التليفزيون وحتى الى مـــاوراء المنافســـة التى تحدث داخل المجال الصحفى وذلك للوصول الـــى علاقـــة القوى بين الهيئات المختلفة بالقدر الذى تتحكم فيه هـــذه العلاقـــة حتى فى الشكل الذى تاخذه التفاعلات بين هذه الهيئات. لكي نفهم لماذا تعرض اليوم هذه الندوة او تلك بشكل منتظـــم بيـــن هـــذا الصحفى او ذاك، يجب الاخذ فى الاعتبار وضـــع المؤسســـات الصحفية التى يمثلها هؤلاء داخل الفضاء الصحفى وكذلك موقعهم داخل هذه المؤسسات. كذلك، لكى نفهم ما يمكن ان يكتبه كـــاتب افتتاحية فى صحيفة اللوموند وذلك الذى لايمكن لـــه ان يكتبـــه، يجب ايضا الاحتفاظ دائما بهذين العاملين فى الذهن. هذه القيـــود الخاصة بالوضع سيتم تقبلها كمحرمـــات، او كايعـــاز اخلاقـــي: <<هذا لا يتوافق مع تقاليد صحيفة اللوموند>>، أو<<هذا مخالف وضد روح اللوموند>>، <<لانستطيع ان نفعل ذلك هنا>>، الخ. كل هذه الخبرات التى تعلن على هيئة مبادئ او قواعد اخلاقيـــة هى اعادة ترجمة لبنية، لتركيب المجال من خلال فرد يحتل موقع معين فى هذا الفضاء.

يكون لدى مختلف الاطراف داخل مجال مـــا تمثيـــلات جدالية مع ممثلين آخرين ممن هم فى حالة منافسة معهم : انـــهم ينتجون بصدد احاديثهم نماذج او قوالب، شـــتائم (فـــى الفضـــاء الرياضي، كل لعبة من الالعاب الرياضية تنتج صورا نمطية عن

الالعاب الاخرى، يتحدث لاعبوا الرجبي عن لاعبي كرة القـــدم بوصفه << الاكتع (العاجز) >>، هذه التعبيرات هى غالبا عبارة عن استراتيجيات للصراع تأخذ فى الواقع شـــكل علاقـــة قـــوى وتهدف الى تعديل هذه العلاقة او الى الاحتفاظ بها. نرى حاليـــا تطور خطاب نقدى جدا تجاه التليفزيون من جـــانب الصحفييـــن العاملين فى الصحف المكتوبة خصوصا من قبل هؤلاء الذيـــن يحتلون مواقع مرؤسة او منخفضة داخل هذه الصحيفة، وكذلـــك من قبل اولئك الذين يعملون فى الصحف الصغيرة التـــى تحتـــل مواقع اقل اهمية.

فى الواقع، هذه التعبيرات هى بمثابة موقف تعكس أساسا موقف هؤلاء الذين يعبرون عنها بطريقة تتسم بالإنكار بشـكل او آخر. لكن هذه التعيرات تمثل فى نفس الوقت استراتيجيات تهدف الى تعديل الزضع. ان الصراع حول التليفزيـــون فـــى الوسـط الصحفي اليوم هو صراع مركزى : وهذا ما يجعل دراسة هـــذا الموضوع غاية فى الصعوبة. جزء من الخطاب الـــذى يدعـي المعرفة عن التليفزيون ليس الا تسجيلا لما يقوله العـــاملين فـــى التليفزيون عن التليفزيون. (يقول الصحفيون الكثير بحســن نيـــة عن عالم اجتماع بانه جيد وانه قريب جدا ممـــا يقدمونـــه. هـذا مايجعلنا لانأمل فيما يقوله – ومن ناحية اخرى، فمن الجيـــد ان يكون كذلك – ان تكون ذو شهرة وشعبية لدى الافراد العـــاملين فى التليفزيون لمجرد ان تحاول قول الحقيقة عـــن التليفزيـــون). ذلك يعنى ان لدينا مؤشرات علـــى تراجـــع متـــدرج للصحافـــة المكتوبة بالنسبة للتليفزيون : واقع ان المكان الذى يحتله ملحـــق التليفزيون لا ينفك ان يتضخم فى جميـــع الصحـــف، واقـــع ان الصحفيين يخصصون سعرا اكـــبر لكـــي يمكنـــهم ان يلتحقـــوا بالتليفزيون (وايضا لان يشاهدوا على شاشة التليفزيون، لان هـذا يساهم فى اعطائهم قيمة وسعرا اكبر داخل الصحيفة التى يعملون

فيها : ان الصحفي الذى يسعى الى امتلاك وزن عليه ان ينجح في الاشتراك فى برنامج تليفزيوني ؛ يحدث ايضا ان الصحفيين الذين يعملون فى التليفزيون يحصلون على مواقع هامة جدا فى الصحف المكتوبة، واضعين بالتالي خصوصية الكتابة ذاتها و خصوصية المهنة محل تساؤل؛ اذا ما استطاعت مقدمة برنامج تليفزيوني ان تصبح بين عشية وضحاها مديرة لاحدى الصحف، فاننا سنضطر للتساؤل على اى شئ يرتكز التأهيل الخاص للصحفى) ؛ ايضا واقع ان ما يسميه الامريكان *الاجندة* (أى ما يجب الحديث عنه من موضوعات الافتتاحيات، المشاكل الهامة) تحدد بشكل متزايد بواسطة التليفزيون (فى آليات الانتشار الدائري للمعلومات الذى شرحته من قبل، وزن التليفزيون هو عامل حاسم واذا حدث ان موضوعا – فضيحة ما او ندوة – ستطرح من قبل صحفي الصحف المكتوبة، فانها لاتصبح حاسمة ومركزية الا عندما تؤخذ وتوزع من جانب التليفزيون، ويتم استثمارها بنفس الضربة ببراعة سياسية). ان موقع الصحفيين العاملين فى الصحف المكتوبة قد اصبح مهددا وبنفس القدر فان خصوصية المهنة توضع الان محل تساؤل. ان كل ما اقوله هنا سيتم تحديده ومراجعته : ان هذا العمل الذى هنا هو فى آن واحد عبارة خطة ترتكز على بعض الابحاث وكذلك على برنامج. انها لاشياء معقدة جدا عندما لايمكننا ان نجعل المعرفة تتقدم فعلا الا عن طريق العمل الامبيريقي الهام للغاية (وهذا لا يمنع بعض واضعي اليد ممن نصبوا انفسهم للحديث عن علم لا وجود له، <<ميديالوجي>> (علم الميديا)، ان يقترحوا حتى قبل اجراء اية دراسة استنتاجاتهم الحاسمة والقاطعة حول وضع او حالة عالم الميديا.

لكن الاكثر اهمية، هو انه من خلال تزايد الوزن الرمزي للتليفزيون، ومن بين التليفزيونات المتنافسة التى تضحى بقدر

كبير من الوقاحة والنجاح فى البحث عما هو مثير، عما يجــذب المشاهدة، عن الخارق للعادة، فإن رؤية معينة للمعلومات تصـل الى حد التغييب والاستبعاد فى حالة صحافة الاثارة المتخصصة فى عرض أخبار الرياضة و الاحداث المتفرقة، هى التى تسعى الى فرض نفسها على مجمل المجال الصحفي. هذا وفى نفس الوقت وبنفس العمل، فإن فئة معينة من الصحفيين الذيـن يتـن نعيينهم بمرتبات كبيرة لا لشئ الا لمجرد استعدادهم للخضـوع دون اوهام الى ماييننتظره الجمهور الاقـل اهتمامـا وتمحيصـا وبالتالى الاكثر سـذاجة والاشـد لامبـالاة تجـاه كـل صـور الضروريات الأدبية وبالاحرى تجاه كل تساؤل سياسي يسعى الى فرض << قيمه >> ، أفضلياته، طرقه فى الوجود وفى الحديث و مفهومه << لما هو مثالى وانسانى>> على مجموع الصحفيين.
تلجأ التليفزيونات بشكل متزايد مدفوعة بمطـق المنافسـة علـى حصة من السوق، الى الحيل القديمة لصحافة الاثارة، مخصصة مكان الصدارة اذا لم يكن كل الحيز للاحداث المتفرقة او للاخبار الرياضية : يتكرر اكثر فاكثر ان تخصص افتتاحيات نشـرات الاخبار التليفزيونية لنتائج مسابقات دورى كرة القدم الفرنسـي او لهذه الاحداث الرياضية او تلك، بصرف النظر عما يجرى فـى العالم من أحداث، هذه الأخبار مبرمجة لكى وتفاجئ نشرة اخبـار الثامنة مساء حتى يتم تقديمها عل الفور، أو كذلـك ألاعتبـارات الاكثر ثانوية والاكثر طقوسية للحياة السياسية (زيـارة رؤسـاء الدول الاجنبية او زيارة رئيس الدولة للخارج، الخ.) ذلك دون ان نضطر للحديث عن الكوارث الطبيعية، عـن الحـوادث وعـن الحرائق، باختصار عن كل هذا الذى يمكن ان يخلق اهتمام بحب استطلاع بسيط، والذى لايتطلب اى كفاءة خاصة مسبقا خصوصا الكفاءة السياسية. ان الاحداث المتفرقة، كما ذكرت ذلك من قبـل، لها كتأثير ان تملأ الفراغ السياسي، ان تقوم بعملية لاتسييس وان

تختزل حياة العالم الى حكاية او طرفة ثانوية صغيرة، الى نـــوع من التهريج المؤذى (يمكن ان يكون قوميا او كونيا، مـــع حيـــاة النجوم والعائلات الملكية، تركيز الاهتمام وتثبيته على احداث بلا نتائج بلا تأثيرات سياسية، يبالغ فى دراميتها حتى <<تسـتخلص منها الدروس>> او لتحويلها الى <<مشاكل للمجتمـــع>> : هنـــا غالبا مايستدعى فلاسفة التليفزيون للنجدة، لكى يعيـــدوا اعطـــاء معنى لذلك الذى لا معنى له، للحكايات الثانوية ولما هو عـــارض الذى يتم تقديمه بشكل مصطنع ودفعه الى صدارة العرض ليصبح حدثا، ارتداء الحجاب فى المدرسة، الاعتداء على المدرســيين او كل << أحداث المجتمع >> الاخرى التى تم صنعها جيدا حتـــى تحدث سخطا مثـــيرا للعواطـــف علـــى طريقـــة فينكيلكـــروت Finkielkraut او لابراز اعتبارات تدعو الـــى الاخـــلاق حســـب طريقة الكونت ســـبونفيل Comte-Sponville. يمكـــن ان يـــؤدى البحث عن الاثارة وبالتالى عن النجاح التجـــارى الـــى اختيـــار أحداث متفرقة تركت لمنطق بناء دوجمائي بدائي (سواء كان ذلك تلقائيا او بطريقة محسوبة)، الى خلق اهتمام بالغ بمداهنة الغرائز والشهوات الاكثر بدائية (بموضوعات مثـــل خطـــف الاطفـــال والفضائح القادرة على خلق نوع من السخط الجماهيري)، وحتـــى اشكال من التعبئة العاطفية والخيرية تماما او ايضا كـــل مـــاهو غريزي لكن عدواني وقريب من الاعدام الرمزي التعسفي، مثـــل حالات اغتيالات الاطفال او الحرائق المنسوبة الـــى الجماعـــات الموسومة .

يتبع ذلك ان الصحفيين الذين يعملـــون فـــى الصحـــف المكتوبة يجدون انفسهم اليوم امام اختيار : هل يجب الذهاب نحو النموذج السائد، اى عمل صحف هـــى بالكـــامل مثـــل نشـــرات التليفزيون، ام يجب التركيز علـــى الاختـــلاف، علـــى عمـــل استراتيجية تقوم على التباين فى العمل ؟ هل يجب الدخول فـــى

لعبة المنافسة مع مخاطرة الخسارة على المستويين، فقد الجمهور المرتبط بالتعريف المحدد للرسالة الثقافية، أم تشديد الاختلاف ؟ ان المشكلة مطروحة ايضا داخل المجال التليفزيوني ذاته، ذلك المجال الفرعي الذى يوجد داخل المجال الصحفي. فى الوضع الحالي لملاحظاتى، اعتقد ان المسؤلين هم ضحايا بشكل لاواعي << لعقلية الأوديمات>> انهم لايختارون شيئا عن طريق التفكير او العقل. (لهذا يلاحظ بشكل منتظم جدا ان الاختيارات الاجتماعية الكبرى لا تتم من قبل اى احد، اذا كان عالم الاجتماع يسبب دائما بعض الإزعاج فان هذا هو الذى يدفع الى الادراك و الوعي بالاشياء التى يفضل ان تترك فى اللاوعى.) اننى اعتقد ان الاتجاه العام يدفع مؤسسات الانتاج الثقافي التى مازالت تعمل وفقا للطرق القديمة الى ان تفقد خصوصيتها لكي تذهب الى أرض سيتم هزيمتها فوقها على اية حال. من هنا فان القناة التليفزيونية الثقافية اى القناة السابعة تصبح قناة ART ، وتتحول بسرعة كبيرة من السياسة الحاسمة المرتبطة بتثقيف الخاصة الى مساومة مخجلة بشكل او آخر بسبب من ضرورات السعي نحو تسجيل نسبة الاقبال التى تؤدى الى تراكم التنازلات والمسلومات بتقديم ماهو سهل فى *فترات البث الاولى* ثم ماهو جاد اومتشدد فى ساعات الليل المتاخرة. ان صحيفة اللوموند هى اليوم امام اختيار من نفس النوع. اننى لااريد هنا ان ادخل فى تفاصيل التحليل ؛ لقد قلت ذلك كثيرا، اننى اعتقد انه لكى نظهر كيف يمكن ان نعبر من مستوى تحليل البنى (الهياكل) الخفية – التى هى الى حد ما مثل قوى الجاذبية، اشياء لايراها احد لكن يجب افتراض وجودها حتى نفهم ذلك الذى يحدث بالفعل – الى مستوى الخبرات الفردية، كيف ان علاقاتال قوى غير مرئية يمكن ان تترجم الى ازمات شخصية، الى اختيارات وجودية حياتية.

ان المجال الصحفى له خصوصيته : انه يعتمد كثيرا على القوى الخارجية اكثر من اى مجال آخر من مجالات الانتاج الثقافي، مجال الرياضيات، مجال الادب، مجال القانون، المجال العلمي، الخ. انه يعتمد بشكل مباشر للغاية على الطلب، انه يخضع لشروط السوق، للانتخاب، ربما اكثر من المجال السياسي ايضا. ان الاختيار بين <<ماهو نقي>> و بين ماهو<< تجاري >> الذى يلاحظ داخل كل المجالات (مثلا، بالنسبة للمسرح، نجد التعارض بين مسرح البوليفار الخفيف وبين المسرح الطليعي، تعارض يعادل التعارض بين قناة TF1 وبين صحيفة اللوموند، مع وجود نفس التعارض بين جمهور اكثر ثقافة واطلاعا من جانب ، وجمهور اقل من ذلك فى الجانب الآخر، نرصد وجود كثير من الطلاب فى جانب، وكثير من التجار فى الجانب الآخر) ان ذلك الوضع يفرض نفسه هنا بحدة وفظاظة خاصة، كما ان وزن القطب التجاري هنا قوي بشكل خاص : لم يسبق ان وجود ذلك الوضع من قبل بمثل هذه الكثافة والشدة، كذلك لا مثيل لهذا الوضع ايضا اذا ماقارناه مع ذلك الذى يحدث فى المجالات الاخرى فى الوقت الحالى. لكن بالاضافة الى اشياء اخرى فاننا لانجد فى العالم الصحفى ماهو مقابل لذلك الذى نلاحظه فى المجال العلمي، مثلا هذا النوع من العدل المتأصل المتمثل فى ان ذلك الذى ينتهك بعض المحرمات يمكن ان يحرق أو، على العكس من ذلك، ان ذلك الذى يحترم قواعد اللعبة يجذب التقدير والاحترام من قبل انداده (مجسدا على سبيل المثال فى استخدام المراجع، الاستشهادات الخ.). فى عالم الصحافة اين المراسم ايجابيبة كانت ام سلبية ؟. الجنين الوحيد للنقد هو برنامج هجائي ساخر مثل برنامج الجونيول فى القناة الرابعة + Canal . فيما يتعلق بالمكافأ التى تربحها، فانك لاتخرج بشئ آخر غير << الاستمرار >> (واقع انه من الممكن ان يستولى صحفي آخر

على الموقع الذى تحتله) لكن مثل هذا المؤشر نادر وغير واضح ويتسم بالغموض.

هيمنة التليفزيون :

عالم الصحافة هو عبارة عن مجال ولكنه يخضع لمحددات وشروط المجال الاقتصادى من خلال عامل الأوديمات (نسبة الاقبال) . هذا المجال التابع جدا والخاضع جدا للقيود التجارية يمارس هو نفسه ضغطا على جميع المجالات الاخرى،باعتباره بنية. هذا التأثير البنيوى (الهيكلي) الموضوعي، المجهول، الغير مرئي، لاعلاقة له البتة مع ذلك الذى نشاهده ونراه مباشرة، مع ذلك الذى نعلن عنه عادة، اى مع تدخل هذا الفرد او ذاك...ليس من المكن، ولايجب البحث عن اظهار المسؤلين. مثلا المؤلف النمسوى الساخر المعروف كارل كراوس Karl Kraus هاجم بقسوة صحفيا يقابل اليوم عندنا مدير تحرير مجلة لو نوفيل اوبسيرفاتير: انه يمضى وقته فى اظهار تبعيته (وخضوعه) الثقافية المدمرة للثقافة، مسايرته ومجاملته لكتاب صغار او ممن يرثى لحالهم، الحذر والتحفظ الذى يبديه تجاه الافكار الخاصة بالسلام والتى يجاهر به بمكر ودهاء... وهكذا، بطريقة شديدة العمومية يوجه النقد الى افراد. والحال، انه عندما نقوم باجراء الدراسات السوسيولوجية نتعلم ان الرجال والنساء يتحملون مسؤلياتهم لكنهم محددين بشكل كبير بحدود امكانياتهم وعجزهم، بحدود البناء الموجودين فيه وبالمواقع التى يحتلونها داخل هذا البناء. من هنا لايمكن ان نقتنع بالخلاف مع هذا الصحفى او ذاك، مع فيلسوف ما، او مع صحفي - فيلسوف...لكل امرء عناده وصلابة رأسه. انني اضحى احيانا تجاه ذلك : لقد اصبح برنار - هنرى ليفي بشكل ما رمزا للكاتب - الصحفي

او الفيلسوف – الصحفي. لكنه ليس من اللائق بعالم اجتماع ان يتحدث عن برنار – هنرى ليفي... يجب رؤية انه ليس الا ظاهرة عارضة لبنية، بانه على طريقة الاليكترون، تعبير عن مجال. لن يمكن فهم اى شئ اذا لم نفهم المجال الذىانتجه والذى يعطيه قوته المتواضعة.

ان هذا لامر هام حتى لايكون التحليل دراميا وايضا من اجل محورة العمل بطريقة عقلانية. ان لدى قناعة فى الحقيقة (وواقع اننى اقدمها من خلال قناة تليفزيونية يشهد على ذلك) بأن تحليلات مثل هذه يمكنها ان تساهم من ناحية فى تغيير الاشياء. ان كل العلوم تتحلى بنفس الغاية. كما قال اوجست كونت : <<العلم حين يفطن يتأهب للفعل>>. ان العلم الاجتماعي له الحق فى مثل هذا الطموح تماما مثل بقية العلوم ذلك انه بمجرد ان يشرح مجال مثل مجال الصحافة، فانه يستثمر فيه منذ البداية غرائز وعواطف، احاسيس وغرائز تتسامى عبر عمل التحليل، ان لعالم الاجتماع بعض الامال فى الاتقان. مثلا، باعلاء الوعي بالآليات، يمكنه ان يساهم فى اعطاء بعض الحرية للافراد الذين تحركهم هذه الآليات، سواء كانوا صحفيين او مشاهدين للتليفزيون. اننى اعتقد – هذا بمثابة قوس – ان الصحفيين الذين يمكنهم ان يشعروا بانهم قد اصبحوا مجرد اشياء،و حسب مايقال، اذا ما انصتوا جيدا الى ما اقوله الآن سيصل بهم الامر للقول – هذا ما نأمله على الاقل – ذلك انه بتضمينهم اشياء يعرفونها بشكل مبهم ولكنهم لايريدون ان يعرفوا كثيراعنها، فاننى اعطيهم ادوات للحرية كي يتحكموا فى الآليات التى اشرت اليها. من جراء ذلك، يمكن التفكير فى عمل تحالفات داخل الصحافة يتجاوز الصحف ويسمح بتحييد بعض التأثيرات السيئة الناتجة عن المنافسة. اذا كان جزءا من التأثيرات السيئة ينتج عن التأثيرات البنيوية (الهيكلية) التى توجه المنافسة، تلك التى بدورها

تنتج حالة الضرورة والطوارئ ؛ و هي نفسها التي تسبب استمرار حالة <<الاثارة>> ، التي يمكن بدورها ان تقوم ببث معلومات غاية في الخطورة بهدف التغلب على منافس آخر وبالرغم من ذلك فان احدا لايدركها، اذا كان الامر كذلك حقيقة، فان واقع ان نجعل هذه الآليات واعية وواضحة جلية، يمكن ان يؤدى الى توافق، بالنظر الى تحييد المنافسة (تقريبا كما يحدث احيانا في مواقف قصوى كحالات اختطاف الاطفال، يمكن ان نتخيل - او ان نحلم - ان الصحفيين يصلون الى عمل اتفاق تفاهم برفض دعوة - هدفها زيادة نسبة الاقبال - بعض الزعماء السياسيين المعروفين باتجاهاتهم وانحيازهم وبطبيعة مواقفهم المعادية للاجانب وبان يلتزموا بالا يعيدوا بث ونشر مثل هذه الافكار والمواقف - ذلك الذى سيكون اكثر كفاءة جدا من كل الادعاءات << بالدحض >>. انني انزلق حقيقة نحو نزعة طوباوية، وانني على وعي بذلك.لكن الى هؤلاء الذين يعترضون دائما على عالم الاجتماع بسبب من قطعيته وتشاؤمه، فانني اعترض فقط على انه اذا كانت الآليات البنيوية التي تولد فقدان الاخلاق تصبح واعية، فإن عملا واعيا يهدف الى التحكم فيها يصبح ممكنا. في مثل هذا العالم الذى يتميز بدرجة كبيرة من التكالب نتحدث كثيرا عن الاخلاق. انني اعلم بصفتي عالم اجتماع ان الاخلاق لا تكون فعالة الا اذا كانت مرتكزة على بنية (على تركيبات او هياكل) على الآليات التي تدفع الافراد الى ان يكون لهم مصلحة في الاخلاق. لكي تظهر اشياء مثل القلق الاخلاقي، يجب عليها ان تجد دعائم لها ومساندة، اى تقدير داخل هذه الهياكل. يمكن لهذا التقدير ان يأتي ايضا من جانب الجمهور (اذا ما كان اكثر وضوحا واكثر وعيا بالتلاعبات التي يخضع لها).

انني اعتقد ان جميع مجالات الانتاج الثقافي تخضع حاليا للضرورة البنيوية للمجال الصحفي، وليس لهذا الصحفى او ذاك، ليس لمدير هذه القناة التليفزيونية اوتلك، لانهم انفسهم قد تم تجاوزهم من جانب قوى المجال. تمارس هذه الضرورة تأثيرات متتالية متكافئة جدا فى جميع المجالات. يمارس المجال الصحفي تأثيره بصفته مجال على بقية المجالات الاخرى. بعبارة اخرى، ان مجال ما يكون خاضعا بشكل اكثر فاكثر للمنطق التجارى الذى يفرض ضرورياته بشكل متزايد على المجالات الاخرى. عبر اللهاث وراء نسبة الاقبال (الاوديمات) يلقى الاقتصاد بثقله على التليفزيون، ومن خلال وزن التليفزيون على الصحافة، انه يمارس ذلك على بقية الصحف الاخرى حتى تلك الاكثر " نقاءا " وكذلك على الصحفيين الذين يستسلمون شيئا فشئيا لموضوعات وقضايا التليفزيون. بنفس الطريقة، وعبر ثقل مجمل المجال الصحفى، فانه يلقى بثقله على كل مجالات الانتاج الثقافي.

فى احد اعداد مجلة <<وقائع البحوث فى العلوم الاجتماعية>> والذى خصصناه لموضوع الصحافة، هناك عدد قليل من الصفحات لريمي لينوار Remi Linoir يظهر فيها كيف ان عددا معينا من المستشارين القضائيين ممن يعملون فى مجال القانون، والذين ليسوا دائما الاكثرتقديرا من وجهة نظر المعايير الداخلية للمجال القانوني، قد امكنهم ان يستخدموا التليفزيون لتغيير علاقات القوى داخل مجالهم متجاوزين بذلك التسلسل والتراتب الوظيفي الداخلي. ان هذا يمكن ايضا ان يعرض للخطر وضع العقلانية الجماعية التى تم اكتسابها بصعوبة ؛ او بشكل اكثر تحديدا، ان تضع المكتسبات المؤمنة والمضمونة من جانب استقلالية عالم القانون موضع تساؤل، ذلك العالم القادر على معارضة منطقه الخاص تجاه حدسيات مضمون العدالة، تجاه الحس القانوني العام الذى هو غالبا ضحية للمظاهر او

للانفعالات. هناك شعور بان ضغط الصحفيين الذين يعبرون عن رؤيتهم او عن قيمهم الخاصة، او الذين يهدفون بكل حسن النية ان يقوموا بدور المتحدث الرسمي باسم <<العواطف والمشاعر الشعبية>> أو <<الرأى العام>> ، يوجه احيانا وبقوة شديدة نشاط وعمل القضاة. لقد تحدث البعض عن تحول فعلي للسلطة القضائية. يمكن ان نجد المعادل ايضا حتى داخل المجال العلمي، حيث كما نشاهد ذلك فى << الفضائح التى قام بتحليلها باتريك شامبان، يحدث ان منطق الديماجوجيا – اى ذلك المتعلق بنسبة الاقبال – يحل محل منطق النقد الداخلي.

يمكن ان يبدو كل هذا التحليل شديد التجريد ؛ سأعيد طرحه بشكل اكثر بساطة. فى كل واحد من المجالات التالية : المجال الجامعي، مجال المؤرخين الخ، هناك من يسيطروا على المجال وهناك المسيطر عليهم وفقا للقيم الداخلية للمجال. ان احد <<المؤرخين الجيدين>> هو انسان يقول عنه المؤرخون انه مؤرخ جيد. ان هذا بالضرورة تقييم دائري. لكن التبعية تبدأ بالضرورة عندما يريد فرد غير متخصص فى الرياضيات ان يتدخل برأيه فى مسألة تخص علماء الرياضيات، عندما يرى ان احد الافراد الغير معترف به كمؤرخ (مؤرخ التليفزيون مثلا) يدلى برأيه حول المؤرخين وان يصغى اليه. بكل <<السلطة>> التى يمنحها اياه التليفزيون، يقول لك مسيو كافادا (مقدم برنامج مسيرة القرن بالقناة الثالثةفى التليفزيون الفرنسي) ان اكبر فيلسوف فرنسي هو مسيو س. تخيلوا انه بمجرد ان نقوم بالحكم على اختلاف بين عالمي رياضيات، بين اثنين من علماء البيولوجيا او بين اثنين من علماء الفيزياء عن طريق الاقتراع، او من خلال ندوة تدور بين فرقاء تم اختيارهم من قبل مسيو كافادا ؟ والحال، ان وسائل الاعلام لا تكف عن التدخل لكي تعلن عن احكام. ان الصحافة الاسبوعية مولعة بذلك : عمل خطة

للسنوات العشر، تحديد اكبر عشر مفكرين ممن يعتد بهم "خلال السنوات العشر الاخيرة، او خلال الخمسة عشر عاما، بل خلال الاسبوع الفائت، << المثقفون>> الذين يعتد بهم، هؤلاء الذين يصعدون، اولئك الذين يأفلون... لماذا يحقق كل ذلك مثل هذا النجاح؟ لان هذه ادوات ووسائل تسمح بالعمل على بورصة القيم الفكرية ومن بينها قيم المثقفين (المفكرين)، اى المساهمين (غالبا من صغار حاملي الاسهم لكنهم اقوياء فى عالم الصحافة او فى مجال النشر...) وهذا يفيد فى الحفاظ على جعل قيمة اسهمهم ترتفع. هناك ايضا الشخصيات القاموسية (فلاسفة، علماء اجتماع او عن علم الاجتماع او مفكرين الخ.) الذين كانوا ومازالوا دائما أدوات للسلطة، ان مهمتهم وقف على ذلك. مثلا، تتمثل احدى الاستراتيجيات الاكثر شيوعا فى احتواء الافراد الذين يمكن او يجب ان يستبعدوا (وفقا لمعايير معينة)، او فى استبعاد الافراد الذين يمكن او يجب احتوائهم، او ايضا بوضع كلود ليفى شتراوس بجانب برنار-هنري ليفي جنبا الى جنب فى مثل هذه <الجوائز>، اى، قيمة لاجدال حولها بجانب قيمة قابلة للنقاش بلا جدال، وذلك بهدف تعديل تركيب عمليات التقييم. لكن الصحف تتدخل ايضا لتطرح قضايا تم الحكم عليها مبكرا من قبل المفكرين - الصحفيين. النزعة الضد-فكرية، التى هى من الثوابت البنائية (من السهل جدا فهمها) فى العالم الصحفى، تحمل الصحفيين مثلا على احياء مسألة اخطاء المفكرين دوريا او على ادخال نقاش لايمكن ان يحرك الا المفكرين - الصحفيين والذى ليس له غالبا سبب آخر للوجود الا السماح لهؤلاء من مفكري التليفزيون بالوجود اعلاميا وباتاحة << فترة للبث >>.

هذه المداخلات الخارجية تشكل تهديدات كبيرة، اولا لانها يمكن ان تخدع المهوسين الذين على الرغم منكل شئ فان لهم وزنا بالقدر الذى يحتاج فيه المنتجون الثقافيون الى مشاهدين

والى مستمعين او الى قراء فهم يساهمون فى نجاح توزيع الكتب ومن خلال البيع يمارسون فعاليتهم على الناشرين، ومن خلال الناشرين على امكانيات النشر مستقبلا. مع نزعة وسائل الاعلام الى الاحتفاء بالانتاج التجاري الموجه الى ان ينتهى فى قوائم *افضل المبيعات* كما هو الحال اليوم، وبان يمارس منطق تبادل المصالح دوره (تبادل المصالح بين الكتاب - الصحفيين والصحفيين - الكتاب " شيلنى وشيلك ")، الشبان ممن يطبعون ٣٠٠ نسخة من اعمالهم سواء كانوا شعراء ، كتاب قصة، علماء اجتماع او مؤرخين، سيواجهون صعوبات متزايدة فى نشر هذه الاعمال. (ملاحظة بين قوسين: لقد ساهم علم اجتماع المثقفين بدون شك فى الوضع الذى نشاهده اليوم فى المجال الثقافي الفرنسي. ان هذا بالتأكيد كان دون قصد: فى الواقع يمكن لعلم الاجتماع ان يكون موضوعا لاستخدامين متعارضين، احدهما كلبي (متهالك وتهكمي) يتمثل فى خدمة معرفة قوانين الوسط حتى يجعل من استراتيجيته اكثر كفاءة، والآخر الذى يمكن ان نطلق عليه << اكلينيكي >> والذى يتمثل فى استخدام معرفة القوانين او الاتجاهات من اجل مكافحتها. لدى اعتقاد بان بعض المتكالبين، انبياء الانتهاكات ومخالفة القوانين، المفكرين-على السريع fast-thinkers ممن يظهرون على شاشات التليفزيون والمؤرخين الصحفيين من مؤلفى القواميس او خطط الفكر المعاصر فى المسجلات الصوتية، يستفيدون عمدا من علم الاجتماع - او من ذلك الذى يفهمونه منه - ليحققوا ضربة قوية، لكى يقوموا بانقلابات معينة فى المجال الثقافي. يمكن هنا قول الكثير عن ذلك الذى يمكن الحصول عليه من نقد فعلي فى فكر ديبورد Debord بصدد ذلك، وهو الذى يعتبر مفكرا كبيرا لظاهرة الإستعراض (الفرجة) حقيقة مع إدعاء راديكالية مزيفة وصلافة يجب العمل على تحييدها.)

المتعاونون :

لكن يمكن للقوى والتلاعبات الصحفية ان تعمل ايضا بطريقة اكثر حذقا وبراعة وفقا لمنطق حصان طروادة، اى بادخال انتاج يتميز بالتبعية والخضوع فى المجالات المستقلة، منتجين تابعين يتلقون تكريسا تحت تأثير القوى الخارجية لا يمكن لهم ان يحصلوا عليه من خلال قيمتهم الفعلية. هؤلاء الكتاب اللاكتاب حقا، الفلاسفة اللافلاسفة فعلا، يحصلون بالتالى هكذا على قيمة تليفزيونية، على اوزان صحفية بدون قياس مماثل مع اوزانهم المحددة داخل عوالمهم المحددة. هذه حقيقة : فى بعض المجالات وبشكل متزايد اكثر فاكثر، يتم اخذ التبعية لوسائل الاعلام فى الإعتبار حتى من جانب لجان المركز القومي للبحوث العلمية CNRS بمجرد ان يدعي احد منتجي البرامج التليفزيونية او الاذاعية احد الباحثين فانه يعطيه نوعا من الاعتراف الذى كان يعتبر حتى هذا الوقت بمثابة نوع من عدم التقدير والحط من المكانة. منذ حوالى ثلاثين عاما بالكاد كان رايمون آرون موضع شك عميق فى كفاءته بتعرضه لبعض الاعتراضات من جانب الجامعيين لانه كان مرتبطا بوسائل الاعلام (الميديا) بصفته صحفيا فى صحيفة الفيجارو. اليوم وصل التغيير فى علاقات القوى بين المجالات لدرجة ان حيثيات التقدير اصبحت أكثر فاكثر - المشاركة فى برنامج مسيو بيفو Pivot التليفزيوني (برنامج اسبوعي تقدمه القناة الثانية فى التيفزيون الفرنسي ويتناول اصدارات الكتب وحوارات مع الكتاب، م.)، التبعية للمجلات، الصور السائدة عن هذا الفرد او ذاك - تفرض نفسها فى مواجهة الاحكام القيمية. من الواجب اخذ مثالين من مجالين من اكثر المجالات نقاءا، المجال العلمي للعلوم البحتة (فى مجال العلوم الاجتماعية سيكون الوضع معقدا لان

علماء الاجتماع يتحدثون عن العالم الاجتماعي الذى يرتبط فيه كل الناس بمصالح وتحديات لدرجة ان لديه علماء اجتماع جيدين وآخرين سيئين وذلك لاسباب لا علاقة لها البتة بعلم الاجتماع ذاته). فى حالة مجال على مايبدو اكثر استقلالا مثل التاريخ او الانثربولوجي او علم البيولوجي او الفيزياء، فان الحكم الاعلامي يصبح هاما بشكل متزايد بالقدر الذى يكون فيه الحصول على المصداقية معتمدا على الشهرة التى لانعرف منها كثيرا ما الذى يعود الى التبعية الاعلامية وما ماذا يرجع الى المكانة المرتبطة بالقيم الحقيقية. اننى فى الحقيقة اقول اشياء مفرطة لكن للاسف يمكننى ان اضاعف من امثلة تدخل القوى الاعلامية، اقصد الاقتصاديات ذات الشهرة من جانب الميديا، فى مجال العلم الاكثر نقاءا. لهذا السبب سواء تم التعبير من خلال التليفزيون ام لا فان مسألة المعرفة تصبح سؤال مركزى تماما وانى أرغب فى ان تهتم الجماعة العلمية به حقيقة. فى الواقع سيكون من المهم معرفة ان الوعي بكل الآليات التى شرحتها يمكن ان يقود الى محاولات جماعية لحماية الاستقلالية التى هى شرط التقدم العلمي وضد الهيمنة المتزايدة للتليفزيون.

حتى تستطيع سلطة الميديا من فرض ممارساتها على مجالات مثل المجال العلمي، يجب عليها ان تجد تواطؤ داخل هذا المجال. تواطؤ يسمح علم الاجتماع بفهمه. يلاحظ الصحفيون فى اغلب الاحيان بكثير من الرضا ان الاكاديميين يتدفقون داخل وسائل الاعلام، ملتمسين باستمرار عرض كشف حساب ، يستجدون دعوة، يحتجون ضد حالة الاهمال والنسيان التى يجدون انفسهم فيها، وبسماع شهاداتهم الهائلة جدا، نصل الى الشك حقيقة فى الاسقلالية الذاتية للكتاب، للفنانين وللعلماء. يجب اخذ موقف من هذه التبعية وبوجه خاص محاولة ان نفهم الاسباب او الدوافع من ورائها. يجب بشكل ما ان نفهم من الذى يتعاون.

انني استخدم الكلمة بتعمد واصرار. لقد اصدرنا فى احد اعـــداد مجلة " وقائع البحوث فى العلوم الاجتماعية " مقال لجزيل سابيرو Sapiro حول المجال الادبي تحت الاحتلال. هذا التحليـــل الرائع جدا ليس هدفه ان يقول انه كـــان هنـــاك متعـــاونين مـــع الاحتلال النازى او لا، أو ان تتـــم عمليـــة تصفيـــة حســـابات استرجاعية بالنسبة للماضي. ان ما يهدف اليه هذا المقال هـــو ان نفهم لماذا، فى اى لحظة، قد اختار كتاب معسكر ما دون آخـــر، وذلك بدءا من عدد معين من التغيرات. حتى نتقدم بسرعة، يمكن القول انه كلما تم الاعتراف بالافراد اكثر وفقا لنديتهم و لقيمتـــهم، وبسبب كونهم اثرياء يملكون ثروة معينة، كلما كانوا قادرين على المقاومة أكثر، على العكس من ذلك كلما كان الافراد خـــاضعين وتابعين فى ممارساتهم الادبية الخالصة، اى، مجـــبربين بـــالدافع التجاري (مثل كلود فارير مؤلف روايات ذات نجاح كبير والـــذى نجد معادل له اليوم)، كلما كانوا منخرطين اكـــثر فـــى العمالـــة والتعاون.

لكن يجب على ان اشرح بشكل افضل ذلك الذى ننتظـــره من كلمة استقلال. ان مجالا مستقلا جدا، مثـــل ذلـــك الخـــاص بالرياضيات مثلا، هو مجال ليس فيه زبائن للمنتجين الا اولئـــك الذين يمكن لهم ان ينجزوا الاكتشاف الذى انجزه واحد منـــهم. (ان حلمى هو ان يصبح علم الاجتماع كذلك ؛ للاسف فان كـــل الناس مختلفين ومنحرطين فيه. كل الناس تعتقد بانـــها تعرفـــه، وينتظر مسيو بيرفيت Peyrefiite ان يعطيني دروسا فـــى علـــم الاجتماع. ولماذا لا يقوم بذلك؟ اخبروني انتم، طالما انـــه يجـــد علماء اجتماع و مؤرخين يقبلوا الذهاب للنقاش والحـــوار معـــه على شاشة التليفزيون...) لكى نحقق هذا الاستقلال، يجب بنـــاء نوع من البرج العاجي نطلق الأحكام من داخله، نقـــوم بـــالنقد وحتى يمكن ان نتعارك، ولكن مع معرفة الســـبب ؛ ان نواجـــه

بعضنا بعضا لكن بواسطة اسلحة، بواسطة أدوات ووسائل علمية، بتقنيات، بمناهج. حدث لى يوما ان كنت اتحدث فى الراديو مع احد زملائي المؤرخين. على الهواء قال لي : << زميلي العزيز، لقد قمت باعادة تحليلك عن التطابق (التوافق عبارة عن طريقة افى التحليل الاحصائي) بتطبيقها على فئة ارباب العمل ولم اجد على الاطلاق ما توصلت انت اليه>>. ثم فكرت مرددا : << هذا رائع ! اخيرا هناك من ينقدني بالفعل...>> لقد حدث انه اخذ تعريفا آخر لارباب العمل كما انه استبعد من العينات الخاضعة للتحليل ارباب البنوك. كان يكفي ان يعيد ادخال (هذا ما يتطلب التزام باختيارات نظرية وتاريخية هامة) هذه الشريحة حتى يصل الى اتفاق. يجب التحلي بدرجة عالية من الاتفاق فوق ارض عدم الاتفاق وبالوسائل التى تضبط ذلك حتى نحصل على حوار علمي حقيقي يمكن ان يؤدى الى اتفاق حقيقي او الى اختلاف علمي حقيقي. اننا نتعجب احيانا من رؤية ان المؤرخين على شاشة التليفزيون ليسوا على اتفاق فيما بينهم. اننا لانفهم فى كثير من الاحيان ان هذه المناقشات تعوض افراد ليس بينهم اى شئ مشترك ومن الواجب الايتحدثوا معا (تماما كما لو انك تضع معا – الصحفيين السيئيين مولعين بذلك – احد علماء الفلك واحد المنجمين، احد الكيميائيين مع احد السيميائيين، احد المتخصصين فى علم اجتماع الاديان مع احد زعماء طائفة دينية،الخ).

هكذا، باختيار مثال الكتاب الفرنسيين تحت الاحتلال، وهو تطبيق خاص لما اطلق عليه قانون جدانوف Jdanov نجد انه : كلما كان احد المنتجين الثقافيين اكثر استقلالا، ثرى فى رأس ماله المعين ومتجه كلية الى السوق المحدود الذى لا يوجد فيه كزبائن الا منافسيه المباشرين، كلما انخرط اكثر فى المقاومة. بالاضافة الى ذلك وعلى العكس، فان اتجاهه الىسوق الانتاج

الواسع (كما فى حالة كتاب المقالات، الكتاب - الصحفيين، كتاب القصة التقليديين (المحافظين على التقاليد)، كلما كان انخراطه اكثر فى التعاون مع القوى الخارجية، الدولة، الكنيسة، الحزب، واليوم نقول الصحافة والتليفزيون، انه يضع نفسه تحت امرتهم او تحت طلباتهم. ان هذا قانون عام جدا وهو يفسر ايضا ما يحدث فى الحاضر. سيعارضوننى بان التعاون مع وسائل الاعلام ليس على الاطلاق نفس الشئ مثل التعاون مع العدو النازى.ان هذا اكيد، واننى لا ادين مقدما بالطبع كل شكل من اشكال التعاون مع الصحف، مع الاذاعة او التليفزيون. لكن من وجهة نظر العوامل التى تدفع الى التعاون والتى تفهم كانها خضوع بلا شروط لمحددات مدمرة لأسس وقواعد المجالات المستقلة، فان المشابهة والمطابقة قوية. اذا كانت المجالات العلمية، الادبية، السياسية مهددة بهيمنة الميديا فان هذا يحدث لانه يوجد داخل هذه المجالات افراد تابعين وخاضعين لايعنيهم الأمر كثيرا من وجهة نظر القيم الخاصة بالمجال او اذا استخدمنا اللغة العادية << انهم مهبطي الهمم >> او هم فى طريقهم الى ذلك، لديهم مصلحة فى التبعية، مصلحة فى الذهاب للبحث عن الوجاهة والرسامة من الخارج (سريعا، مبكرا، قبل الأوان وهى وجاهة زائلة) تلك التى لم يحصلوا عليها داخل المجال والتى من بين اشياء اخرى سينظر اليها بشكل حسن جدا من قبل الصحفيين لانها لاتجعلهم يخافون (على خلاف المؤلفين الاكثر استقلالية) كما انهم على استعداد للعبور بدافع من تطلعاتهم. اذا بدا لى انه لا غنى على الاطلاق من محاربة المفكرين التابعين، ذلك أنهم بمثابة حصان طروادة الذى من خلاله تتم التبعية، اى يتم ادخال قوانين التجارة والاقتصاد الى المجال.

اعود بشكل سريع جدا الى مثال السياسة. المجال السياسي ذاته له استقلالية معينة. مثلا، البرلمان هو نوع من

الحلبة السياسية يتم داخلها الضبط والتنظيم باستخدام اللغة والتصويت وفقا لقواعد معينة، عدد معين من الخلافات بين الافراد الذين تم اختيارهم للتعبير عن المصالح المختلفة او حتى المتعارضة. سوف ينتج التليفزيون داخل هذا المجال تأثيرات مشابهة لتلك التى ينتجها فى المجالات الاخرى/ وعلى وجه الخصوص فى المجال القانوني : سيضع موضع التساؤل حق الاستقلالية. لكي أبين ذلك، ساسرد سريعا قصة تم نشرها فى نفس العدد من مجلة " وقائع البحوث في العلوم الاجتماعية " وتتعلق بهيمنة الصحافة، تلك هى قصة الطفلة كارين. انها طفلة من جنوب فرنسا تم اغتيالها. نشرت الصحف المحلية الوقائع المتعلقة بالاحتجاجات الساخطة لوالد الطفلة ولشقيقه اللذان قاما بتنظيم مظاهرات صغيرة، استعادتها صحيفة محلية صغيرة ثم صحيفة اخرى. يسود القول << هذا فظيع، طفلة صغيرة ! يجب اعادة تطبيق عقوبة الاعدام ! >>. ينزلق رجال السياسة ممن لهم قواعد محلية، الافراد القريبون من الجبهة الوطنية (حزب يميني عنصري متطرف : م.) معبأين بالاثارة بشكل خاص. يحاول صحفي من مدينة تولوز على وعي اكثر بالامور ان يحذر: << انتبهوا، ان هذا بمثابة اعدام تعسفي، يجب التفكير بتعقل وتأمل >>. جمعيات المحامين تدخل فى المعركة بدورها وتطالب بتطبيق نظام القضاء الشعبي المباشر... يزداد الضغط ؛ وفى نهاية الامر تنشأ التبعية الدائمة. فى هذا العرض المتسارع، نرى كيف ان وسائل الاعلام تمارس دورها كأداة للمعلومات المعبأة، شكل منحرف من الديموقراطية المباشرة يمكن ان يخلق ذلك الذى يؤدى الى تلاشي المسافة بالنظر الى الحاح الحدث، بالنظر الى ضغط العواطف الجماعية الجياشة، التى ليست بالضرورة ديموقراطية، تلك التي تؤمن بطبيعة الحال عبر المنطق المستقل نسبيا للمجال السياسي. نشاهد اعادة تشييد منطق

الانتقام الذى ينتظم ضده كل منطق قـانوني او حتـى سياسـي. يحدث ايضا ان الصحفيين بسبب عدم احتفاظهم بمسافة ضرورية للتفكير والتأمل، يلعبون دور رجال اطفاء الحرائق. يمكنـهم ان يساهموا في خلق الحدث، بابرازهم احداث متفرقة (اغتيال شـاب فرنسي بواسطة شاب آخر فرنسي تماما ولكنـه مـن <<اصـل افريقي>>) حتى يتحلي بعد ذلك، هؤلاء الذين يسـكبون الزيـت فوق النار، تلك النار التى اشعلوها هم انفسـهم، اقصـد الجبهـة الوطنية FN ، التى تستغل او تحاول استغلال المشـاعر الناتجـة عن الحدث >> بطبيعة الحال، كما تردد ذلك الصحف حتى تلـك التى صنعت الحدث بوضعه فى صدر صفحاتها الاولى، بـترديده فى جميع النشرات التليفزيونية، الخ ؛ حتى يمكنها ان تحقق مـن وراء ذلك مكاسب الفضيلة والشجاعة، الضمير الانساني الطيـب، بكشفها عن الازمة الكبرى وبادانتها بوقـار مصطنـع التدخـل العنصرى لاولئك الذين ساهموا فى فعل هذا العمل واولئك الذيـن يستمرون فى تقديم ادوات التلاعب الاكثر روعة.

حق الدخول وواجب الخروج:

اريد الآن ان اقول بضع كلمات حول مسألة العلاقات بين السرية (النزعة الباطنية) والنخبوية. هذه مشكلة تتنـاقش حولـها واحيانا تبلبل وتشوش كل المفكرين منذ القرن التاسع عشر. مثـلا مالارميه الذى يعتبر بمثابة الرمز ذاته للكاتب البـاطني النزعة، نفى، يكتب لبضع افراد فى لغة مبهمة غامضـة غـير مفهومة بالنسبة للعامة، هذا الاهتمام طوال حياته بان يقدم للجميع ماحققه كشاعر. اذا كانت وسائل الاعلام قد وجدت هناك فى ذلك الوقت، فان ثمة فرد سيسال<< هل سأذهب الى التليفزيون ؟ كيف توفق هذه الضرورة (بل المغالاة) فى النقاء، التي تلازم كل نـوع

من العمل العلمي او الفكري، والتي تؤدى الى الميل الباطني (الانعزالى)، مع القلق الديموقراطي بان يجعل ذلك الذى يملكه متاحا لاكبر عدد ممكن من الافراد ؟>>. لقد لاحظت ان التليفزيون ينتج تأثيران. من ناحية هو يقلل ويخفض من حق الدخول فى عدد معين من المجالات، فلسفية، قانونية، الخ : يمكنه ان يخلع صفة عالم اجتماع، كاتب او لفيلسوف الخ.. على افرادا لم يدفعوا المقابل الضروري للدخول فى هذه المجالات وذلك وفقا للتعريف الداخلي للمهنة المعنية. من ناحية اخرى، فإن التليفزيون في وضع يمكنه من الوصول الى اكبر عدد من الجمهور. إن الذى يبدو لى صعبا على على التبرير، هو انه يسمح بمد وتوسيع الاقبال بهدف التقليل من حق الدخول فى المجال. سيعترضون باننى اقف على ارضية الافتراضات النخبوية، باننى ادافع عن القلعة المحاصرة للعلم الراقي والثقافة الراقية او حتى لمنعها عن الشعب (محاولين منع التليفزيون عن هؤلاء الذين يقال احيانا انهم المتحدثين باسم الشعب، فى كبائن نوم قطارات حياتهم المدهشة، بحجة انهم يعرفون كيف يستمعون الى الشعب، يقومون بعمل الاستفتاء عبر قياس نسبة الاقبال) فى الواقع، اننى ادافع عن الشروط الضرورية اللازمة لانتاج ولتوزيع الابداعات الاكثر رقيا للانسانية. للافلات من البديل النخبوي ومن الديماجوجية، يجب فى آن واحد الدفاع عن حماية وحتى عن رفع نسبة *حق الدخول* فى مجالات الانتاج – لقد قلت للتو باننى آمل فى ان يكون ذلك ايضا بالنسبة لعلم الاجتماع الذى تأتيه التعاسة والشقاء فى اغلب الاحيان من واقع ان حق الدخول اليه منخفض للغاية – وان تشديد *واجب الخروج* مصحوبا بتحسن شروط ووسائل الخروج.

يتم التلويح بالتهديد المتعلق بمقولة مساواة كل الناس (هذه مقولة تقود الى الفكر الرجعي الذى نجده بشكل خاص لدى هيديجر). فى الواقع، ان ذلك يمكن ان يأتى بسبب شروط التدخل والتعدى الاعلامي فى مجالات الانتاج الثقافي. يجب الدفاع فى نفس الوقت عن الباطنية اللازمة (وفقا للتعريف) لكل بحث او عمل رائد وعن ضرورات تبسيط وتسهيل الباطنية والنضال من اجل الحصول على وسائل تحقيق ذلك فى ظل شروط جيدة. بعبارات اخرى، يجب الدفاع عن شروط الانتاج الضرورية لتحقيق تقدم ما هو عالمي وفى نفس الوقت يجب العمل على تعميم شروط الدخول الى ماهو عالمي، من اجل تحقيق وضع يكون فيه عددا اكبر واكبر من الافراد قادرين على تحقيق الشروط الضرورية لحيازة ماهو عالمي, كلما كانت فكرة ما معقدة لانها قد انتجت فى عالم مستقل، كلما كان استرجاعها صعبا. من اجل التغلب على الصعوبة، يجب على المنتجين القابعين فى قلاعهم الصغيرة ان يخرجوا وان يناضلوا جماعيا من اجل الحصول على شروط جيدة للتوزيع والانتشار، من اجل الحصول على حق امتلاك وسائل التوزيع الخاصة بهم ؛ ان يناضلوا ايضا بالترابط مع المعلمين، مع النقابات، مع الجمعيات الخ.. وذلك حتى يتلقى المستقبل تعليما يهدف الى تطوير والارتفاع بمستويات ادراكهم. قال مؤسسي الجمهورية فى القرن التاسع عشر لقد نسينا ان هدف التعليم ليس فقط تعلم القراءة والكتابة وكيفية الحساب كي يتم خلق عامل جيد، ولكن الهدف من التعليم هو توفير الامكانيات التى لاغنى عنها لتكوين المواطن الصالح، حتى يكون فى وضع يمكنه من ان يفهم القوانين، ان يفهم ويدافع عن حقوقه، ان ينشأ الجمعيات والنقابات... يجب العمل على عولمة شروط الدخول الى ماهو عالمي.

باسم الديموقراطية، من الممكن بل يجب النضال ضد اللهاث والجرى وراء نسبة الاقبال (الاوديمات). ان هذا يبدو متناقضا للغاية لان الافراد الذين يدافعون عن مملكة الاوديمات يهدفون الى تقرير انه لايوجد شئ اكثر ديموقراطية من ذلك (هذه هى الحجة المفضلة لدى المعلنين ومحترفى الاعلانات الاكثر تفاهة، التى تعاقب عليها بعض علماء الاجتماع، دون ان نتحدث عن كاتبي المقالات من ذوى الافكار المحدودة، الذين يطابقون نقد الاستطلاعات - وقياس نسبة الاقبال - مع نقد الاستفتاء العام)، من الضروري ان يترك للافراد حرية الحكم، ان يختاروا (<<ان احكامكم المسبقة ايها المفكرون النخبويون - تلك التى تحملكم الى اعتبار ان كل هذا جدير بالاحتقار>>) ان الاوديمات هو شرط واجبار السوق، الاقتصاد، اى لشرعية خارجية وتجارية تماما، وان الخضوع لشروط واجبار هذه الآداة الخاصة بالسوق هى المعادل التام فى المادة الثقافية لما هو ديماجوجي وموجه من قبل استطلاعات الرأى فى الحياة السياسية. يدار التليفزيون بواسطة قياس نسبة الاقبال التى تساهم فى القاء العبء على المستهلكين المفترض انهم احرار وبوضع ضرورات السوق التى ليس لها صلة مع التعبير الديموقراطي لرأى جماعي واضح، لعقل عام، عقلاني، كما يريد ان يدفعنا الى الإعتقاد بذلك اولئك الديماجوجيون، الفقهاء. ان المفكرين النقديين والمنظمات الموكلى اليها التعبير عن مصالح المهيمن عليهم، بعيدون جدا عن ان يفكروا بوضوح فى هذه المشكلة. الامر الذى لايساهم الا قليلا فى تدعيم وتقوية كل الآليات التى حاولت ان افسرها.

ملحق

نفوذ الصحافة*

* لقد فكرت انه من المفيد اعادة نشر هذا النص هنا، لقد نشر من قبل فـــى مجلة "وقائع البحوث فى العلوم الاجتماعية" حيث عرضت فيه بشكل اكـثر تحديدا واكثر تحكما معظم الموضوعات التى اقدم منها فيما يلي نسخة اكثر سهولة ومنالا.

الموضوع الذى اعالجه هنا، ليس <<سلطة الصحفيين>> - وبشكل اقل من ذلك موضوع الصحافة <<كسلطة رابعة>> - لكن الموضوع هو هيمنة << الآليات >> الخاصة بمجال صحفى يخضع اكثر فاكثر لشروط وضروريات السوق (القراء والمعلنين)، تلك الشروط التى تمارس *بداية على الصحفيين* (وعلى المفكرين - الصحفيين) وبعد ذلك جزئيا ومن خلال هؤلاء على مختلف مجالات الانتاج الثقافي، المجال القانوني، المجال الادبي، المجال الفني، المجال العلمي. الامر بالتالي هو ان نفحص كيف ان المحددات او الشروط البنيوية التى تشكل وزن هذا المجال والتى هى ذاتها خاضعة لمحددات وشروط السوق، تعدل بشكل او آخر علاقات القوى داخل مختلف المجالات، مؤثرة بذلك على الذى يتم عمله فيها وعلى مايتم انتاجه منها، ممارسة تأثيرات متشابهة تماما على هذه العوالم التى تبدو شديدة الاختلاف ظاهريا. هذا دون الوقوع فى خطأ او آخر من بين الخطأين المتعارضين، اى الوهم بان هذا لم يشاهد من قبل على الاطلاق، ووهم ان الحال كان هكذا دائما.

الهيمنة التى يمارسها المجال الصحفى ومن خلاله منطق السوق، على مجالات الانتاج الثقافي، حتى تلك الاكثر استقلالية، ليس فيها شئ جديد جذريا : يمكن ان نكون دون عناء بدءا من نصوص لكتاب من القرن الماضي (القرن التاسع عشر)، لوحة واقعية تماما للتأثيرات الاكثر عمومية التى تنتجها داخل هذه العوالم المحمية [1]. لكن يجب الحذر من اغفال خصوصية الوضع

الراهن الذى يقدم صفات ليس لها مثيل من قبل نسبيا اذا تجاوزنا اللقاءات الناتج عن تأثير التشابهات : التأثيرات التى ينتجها تطور التليفزيون داخل المجال الصحفي ومن خلاله يمارسها على كل مجالات الانتاج الثقافي الاخرى، هى بدون اى وجه للمقارنة اكثر اهمية فى كثافتها واتساعها من تلك التى احدثها ظهور النشر الصناعي للأدب بالنسبة للصحف الكبرى والمسلسلات و الذى ولد لدى الكتاب ردود افعال ساخطة او معارضة تولدت عنها حسب تعبير رايمون وليامز Raymond Williams التعريفات الحديثة <<للثقافة>>.

يلقى المجال الصحفي على مختلف مجالات الانتاج الثقافي بمجموعة من التأثيرات المرتبطة فى شكلها وكفاءتها بتركيبه الخاص، اى بتوزيع (تقسيم) مختلف الصحف والصحفيين وفقا لاستقلاليتهم عن القوى الخارجية، القوى المتعلقة بسوق القراء وتلك الخاصة بسوق المعلنين. بدون شك، تقاس درجة استقلالية مؤسسة ما للتوزيع بقياس نسبة دخلها الذى يأتي من الاعلانات ومن دعم الدولة (على هيئة اعلانات واعفاءات) وايضا بدرجة تركيز المعلنين. بالنسبة لدرجة استقلالية صحفي معين، فانها تعتمد بداية على دزجة تركيز الصحيفة (التى بتقليلها لعدد العاملين المحتملين لديها فانها تزيد من حالة عدم الإستقرار وعدم تأمين الاحتفاظ بالوظيفة) ؛ ثم على مكانة الصحيفة داخل الفضاء الصحفى ذاته، اى اذا ما كانت قريبة بدرجة او باخرى من القطب <<الفكري / الثقافي>> او من القطب <<التجاري>> ؛ ثم مكانة الصحفى نفسه داخل الصحيفة او المؤسسة الصحفية التى يعمل بها (صحفى دائم، ام صحفى بالقطعة الخ.) وهى التى تحدد الضمانات المختلفة المتعلقة بالمكانة الوظيفية (وهى مرتبطة بشكل خاص بالشهرة) التى يحتلها وايضا قيمة ما يتقاضاه من مرتب (عامل التعرض لاقل قدر من التجريح باشكال

خفيفة وناعمة للعلاقات العامة، اقل قــدر مــن الاعتمــاد علــى الاعمال التى تهدف الى الكسب البحث او العمل بالاجرة التى من خلالها تمارس هيمنة اصحاب الاعمال) ؛ وفى النهايــــة تعتمــد درجة استقلالية الصحفي على كفاءتــــه فــى الانتــاج المســتقل للمعلومات (بعض الصحفيين مثل الذين يكتبون فى مجال تبسيط العلوم او الصحفيين الذين يكتبون عن الاقتصاد تــابعين بشــكل خاص. فى الواقع، من الواضح ان السلطات المختلفــة وخاصــة الهيئات الحكومية ـــ تمارس ضغطها ليس فقط من خلال الشروط والعوامل الاقتصادية التى تتمتع بها ولكن ايضا من خــلال كــل انواع الضغط التى يوفرها احتكار المعلومات الشرعية (الرسمية) المصادر الرسمية تحديدا - ؛ هــذا الاحتكــار يعطــى بدايــة للسلطات الحكومية ولاجهزة الادارة، البوليس على سبيل المثــال، لكن ايضا للسلطات القضائية، العلمية الخ. اسلحة فــى النضــال الذى تشنه فى معارضة الصحفيين، ومن خــلال ذلــك تحــاول التحكم والتلاعب فى المعلومات او فى الافراد الموكل اليهم نقــل هذه المعلومات بينما تحاول الصحف من جانبها ان تؤثر وتتحكــم فيمن يمتلكون المعلومات بهدف محاولة الحصول عليها وتــامين نشرها قبل الآخرين. بالإضافة الى ذلك لا يجــب ان نغفــل او ننسى القوة الرمزية الاستثنائية التى تتمتع بها الســلطات العليــا للدولة اى القدرة على تحديد <<اولويات الموضوعات اليوميــة>> عن طريق نشاطاتها وقراراتها وتدخلاتها فى المجال الصحفــــي (مقابلات ومؤتمرات صحفية الخ.) وكذلك ترتيب اهمية الاحداث التى تفرض على الصحف.

بعض خواص المجال الصحفي:

لكى نفهم كيف يساهم المجال الصحفي فى تقوية العامل <<التجاري>> داخل كل المجالات، لصالح المنتجين الاكثر حساسية لاغراءات القوة الاقتصادية والسياسية وذلك على حساب المنتجين الأكثر ارتباطا بالدفاع عن مبادئ وقيم <<المهنة>>، يجب إدراك ان هذا المجال ينتظم وفقا لبناء مشابه لذلك الخاص بالمجالات الأخرى وفى نفس الوقت يتميز بأن وزن العامل <<الإقتصادي>> فيه أكبر كثيرا مما فى تلك المجالات.

لقد تكون المجال الصحفي بالشكل الذى نعرفه خلال القرن التاسع عشر حول المعارضة بين الصحف التى تقدم قبل اى شئ <<*الاخبار*>> ومن الافضل الاخبار <<*المثيرة للمشاعر*>> أو أخبار <<الإثارة>> من ناحية، ومن ناحية اخرى الصحف التى تقدم تحليلات و<<تعليقات>>، الصحف الملتزمة بتحديد اختلافها عن النوع الاول عن طريق تأكيدها بدرجة كبيرة على القيم <<الموضوعية>> [٢] ؛ انه بمثابة مكان للمعارضة بين منطقين ومبدأين للشرعية : الاعتراف من قبل الخصوم بهؤلاء الذين يعترفون ويحترمون باكبر قدر<< القيم>> أو المبادئ الداخلية للمهنة، والاعتراف من قبل أكبر عدد من الناس مجسدا فى عدد الدخول من القراء، المستمعين او المشاهدين وبالتالي برقم المبيعات (افضل-المبيعات) وبالربحية النقدية، و حكم الاستفتاء فى هذه الحالة لا ينفصل عن حكم السوق.

كما فى المجال الادبي او الفني، فان المجال الصحفي هو بالتالي مكان لمنطق معين، ثقافي تحديدا، والذى بفرضه على الصحفيين من خلال الشروط والتحكمات المتداخلة التى تمارس كل منها وزنها على الاخرى والتى يرتكز فيها الاحترام (احيانا يشار اليه كادبيات) على الشهرة واحترام وشرف المهنة. فى

الواقع، ربما بعيدا عن " الاسترجاعات " التـــى تعتمـد قيمتـها ومغزاها على المكانة التى يحتلها هؤلاء الذين يصنعونها وهؤلاء الذين يستفيدون منها داخل المجال، توجد قليـل مـن الأتفاقـات الايجابية الغير قابلة للنقاش نسبيا ؛ اما بالنسبة للموافقات السلبية، ضد ذلك الذي يكشف عن مصادره مثلا، فليس لها وجود تقريبـا - اذا تمت محاولة فعلية لعدم ذكر مصدر صحفي، خصوصـا اذا كان الامر يتعلق بمؤسسة صغيرة، فذلك ليس الا نوع من اعـادة الاعتبار.

لكن كما فى حالة المجال السياسي والمجال الاقتصـادي وذلك اكثر مما فى المجال العلمي او المجال الفني او الادبـي او حتى المجال القضائي، يخضع المجال الصحفي بشكل مستمر الى اختبار احكام السوق، من خلال الموافقة المباشرة للزبائن او الغير مباشرة لمقياس نسبة الاقبال (حتى لو كان دعـم الدولـة يؤمـن بعض الاستقلال تجاه الشروط والمحددات المباشـرة للسـوق). يتورط الصحفيون بلا شك بشكل اكثر فى موائمة <<عامل نسـبة الاقبال>> فى الانتاج (<<عمل بسيط>> ، <<عمـل قصـير>> الخ) او فى تقييم الانتاج وحتى تقييم المنتجيـن (<<انـه يظـهر بشكل جيد فى التليفزيون>> او <<انه يبيع جيدا...>>) الذيـن يحتلون موقعا اكثر مكانة (مدير قناة تليفزيونية، رئيس تحريـر، الخ) فى مؤسسة تعتمد مباشرة و بشكل اكثر على السوق (قنـاة تليفزيونية تجارية بالمعارضة مع قناة تليفزيونية ثقافية، الـخ.) ؛ الصحفيون الاكثر شبابا والاقل تمرسا هم على العكس من ذلـك منهمكون ومنخرطـون اكـثر فـى معارضـة مبـادئ وقيـم <<المهنة>> مع المتطلبات الاكثر واقعية او الاكثر تفاهة لمن هم << اقدم منهم >> [٣].

وفقا للمنطق الخاص بمجال متمحور باتجاه الانتاج الـذى يتعرض سريعا للتلف اى <<الاخبار>>، تسعى المنافسة من اجل

جذب الزبائن الى محاولة اخذ شكل منافسة على الاولويــــة، اى، على الاخبار الاكثر اخبارا (الاخبار المثيرة)، - هذا يحدث طبعا عندما نكون اكثر قربا من القطب التجاري. ان شروط ومحـددات السوق لا تمارس فعلها الا عبر تأثير المجال : فى الواقع، عــددا من هذه الاخبار <<المثيرة>> التى يجب البحث عنها وتقديرهــا كميزة لاغراء وغزو الزبون، محكوم عليها بان تظـــل مجهولــة بالنسبة للقراء او المشاهدين ولا يتم تقديرها الا من قبل المنافسين (الصحفيون غالبا هم الوحيدون الذين يقرأون كل الصحــــف...). بالانتساب الى بنية والى آليات المجال، يستدعى التنافس من اجـل الاولوية والسبق هؤلاء الذين يمتلكون امكانيات مهنية تنزع الــــى وضع كل الممارسات الصحفية تحت اشارة السرعة (او العجلــــة واللهاث) والتجديد المستمر [٤]. امكانيات لاتكـــف عـــن التدعيـــم بواسطة العوامل الوقتية الأنية ذاتها التى تتحلى بها الممارســـات الصحفية التى تجبر على العيش والتفكـير يومــا بيــوم وعلــى تقديرقيمة معلومات ما بالنظر الى آنيتها (<< هذا هو - ACCRO ACTU >> أى الاقتراب من الحـــدث الـــذى تقـدوه النشــرات التليفزيونية)، كل ذلك يخلق ويحبز نوعا مـــن فقـــدان الذاكـــرة المستمر وهو النقيض السالب لتشجيع وانطلاق التجديد كما يمثـــل عرضا ونزوعا نحو الحكم على المنتجين وعلى الانتاج وفقا لمبدأ التعارض بين <<الجديد>> وبين ما <<تجاوزه الزمن>> [٥].

ثمة تأثير آخر للمجال متناقض تماما وقليل القبول علــــى تأكيد الاستقلالية الجماعية او الفردية و هو : ان التنـــافس يدفـــع ويحرض على ممارسة رقابة دائمة (يمكن ان تصـــل الــــى حـــد التجسس المتبادل) على انشطة المتنافسين بهدف الاســـتفادة مـــن فشلهم وتجنب اخطائهم والتصدى لنجاحاتهم بمحاولة نقل الوسائل التى يفترض انها وراء هذه النجاحـــات، موضوعـــات الاعـــداد الخاصة للمجلات التى دربب على اعادة اخذها، الكتب التــــى تـــم

عرضها من قبل آخرين و<< لا يمكـــن ان لا نتكلـــم عنـــها >> المدعوون الذين يجب رؤيتهم على شاشة التليفزيون، موضوعات من الواجب <<تغطيتها>> لان آخرين قاموا بتغطيتها، وحتـــى الصحفيين الذين يتعاركون غالبا حول هذه الموضوعـــات حتـــى يمنعوا المنافسين من الحصول عليها لا لشئ الا لمجرد الرغبـــة الفعلية في حيازتها. وهكذا في هذا المجال كمـــا فـــي مجـــالات اخرى، فان المنافسة بعيدة عن ان تكون منتجة آليا لاعمال اصيلة ومتنوعة، انها تميل غالبا الى تفضيـــل التشـــابه والتمـــاثل فـــي العرض، كما يمكن ان نبرهن على ذلك بسهولة بمقارنة محتويات المجلات الاسبوعية الكبرى، او محطـــات الراديـــو او قنـــوات التليفزيون ذات الاقبال الواسع. لكن، هذه الآلية البالغة القوة، لـــها ايضا كتأثير ان تفرض بدهاء على كـــل المجـــال<<اختيـــار>> أدوات ووسائل التوزيع الاكثر خضوعا مباشرة وكليـــة لاحكـــام السوق، مثل التليفزيون وهو الذى يساهم في توجيه كل الانتـــاج نحو الحفاظ على القيم القائمة، كما يشهد بذلـــك مثـــلا واقـــع ان الجوائز الدورية التى بواسطتها يجهد المفكرون - الصحفيون من اجل فرض رؤيتهم للمجال (وبسبب من تبادل المصـــالح ونـــزع الاعتراف من نظرائهم...) متراصين جنبا الى جنـــب تقريبـــا ، دائما مؤلفين لانتاج ثقافي سريع الاستهلاك (والتلف ايضا) موجـــه ليحتل لبضع اسابيع مكانا في قائمة افضـــل - المبيعـــات best sellers، ومؤلفين معتمدين هم في آن واحد << ذو قيمة مؤكـــدة >> مناسبة للذوق الطيب لهؤلاء الذين يعنيـــهم ذلـــك، وايضـــا باعتبارهم كلاسيكيات، انه يبيع جيدا على المدى الطويـــل. هـــذا يعنى انه حتى لو كانت فعاليتهم تكتمل تقريبا كل يوم عبر اعمـــال الكتاب كافراد، فان الآليات التى يعتبر المجال الصحفي ساحة لها وكذلك التأثيرات التى يمارسها على المجالات الاخرى حاسمة في كثافتها واتجاهها بفعل <<البنية>> التى تميزها.

تأثيرات ونتائج التعدى :

تسعى هيمنة المجال الصحفي الى ان تدعم وجود الوكلاء والمؤسسات التى تقع على حدود القطب الاكثر خضوعا لتأثير الارقام ومنطق السوق داخل كل مجال ؛ هذا التأثير يمارس بدرجة اكثر كلما كانت المجالات التى تمارسه تخضع هى ذاتها بنويا وبصرامة اكثر لهذا المنطق، كذلك فإن المجال الصحفي الذى يمارس ذلك يكون ايضا اكثر خضوعا ظرفيا للمحددات الخارجية التى تؤثر بنيويا عليه اكثر من مجالات الانتاج الثقافي الاخرى. والحال اننا نلاحظ اليوم مثلا ان المراسيم والقرارات الداخلية قد فقدت قوتها الرمزية كما ان الصحف والصحفيين <<الجادين>> يفقدون هالاتهم وهيبتهم لأنهم ايضا مجبرين على تقديم تنازلات تجاه منطق السوق وتجاه <<التسويق>> الذى تم ادخاله من قبل التليفزيون التجارى. هذا المبدأ الجديد للشرعية المتمثل فى اقرار وتكريس لغة الأرقام << والظهور الاعلامي >> القادر علىمنح انتاج معين (ثقافي او حتى سياسي) او منح بعض المنتجين التعويض الديموقراطي ظاهريا عن الاحكام والقواعد الخاصة بالمجالات المتخصصة. بعض <<تحليلات>> التليفزيون يعود نجاحها فى نظر الصحفيين وخصوصا أولئك الاكثر حساسية لتأثير نسبة الاقبال، الى حقيقة انها تضفي شرعية *ديموقراطية* على المنطق التجاري محاولة ان تفرض ذلك وفقا لمصطلحات اللغة <<السياسية>>، أى استخدام مايقابل الاستفتاء العام وتطبقه على مشكلة انتاج وتوزيع <<ثقافي>> [6].

وهكذا فان تدعيم هيمنة مجال صحفي هو فى حد ذاته مهيمن عليه وخاضع اكثر فاكثر للهيمنة المباشرة للمنطق التجاري تسعى الى تهديد استقلالية المجالات المختلفة للانتاج الثقافي، بدعمها للعملاء او للمؤسسات داخل كل واحد من هذه

المجالات، اولئك الذين هم اكثر استعدادا للتسليم لاغراءات الارباح << الخارجية >> لانهم اقل ثراءا فى امكانياتهم الخاصة (علمية، ادبية، الخ) كما انهم اقل تأمينا للمكاسب النوعية الخاصة التى يقدمها لهم المجال مباشرة او على مدى ابعد بشكل او آخر.

هيمنة المجال الصحفي على مجالات الانتاج الثقافي (فى مواد الفلسفة والعلوم الاجتماعية على وجه الخصوص) تمارس اساسا عبر تدخل المنتجين الثقافيين الموجودين فى موقع غير واضح وغير مؤكد بين المجال الصحفي والمجالات المتخصصة (ادبية او فلسفية الخ). هؤلاء المفكرون – الصحفيون [٧] الذين يستطيعون بسبب مظهرهم المزدوج تجنب الشروط والالتزامات الخاصة بكل من المجالين، يسعون الى ادخال قوى مكتسبة بشكل او آخر من كل مجال الى المجال الآخر، هؤلاء فى وضع يمارسون فيه تأثيرين كبيرين : من ناحية ادخال اشكال جديدة من الانتاج الثقافي تقع فى المابين – بين، سئ التحديد فيما بين النزعة الانعزالية الجامعية وبين السهولة الصحفية ؛ من ناحية اخرى، يفرضون عبر احكامهم النقدية تحديدا، مبادئ لتقييم الانتاج الثقافي الذى يعطيه من خلال التصديق عليه سلطة ثقافية ظاهرية بالنظر الى مطالب واحكام السوق مدعمين بذلك الانخراط التلقائي لبعض شرائح المستهلكين فى حالة الخضوع والإنجذاب *allodoxia* هادفين الى تقوية تأثير عامل الاوديمات او مؤشر افضل المبيعات على تلقي الانتاج الثقافي،و ايضا بشكل غير مباشر وعلى مدى الزمن، على الانتاج بتوجيههم الاختيارات (اختيارات الناشرين على سبيل المثال) نحو منتجات اقل جدية واكثر قابلية للبيع. انهم يستطيعون ان يعتمدوا على دعم اولئك الذين يعرفون <<الموضوعية>> كنوع من معرفة كيف تعيش مع صحبة طيبة وحيادية كهربية تجاه كل الاطراف المعنيين،

آخذين منتجات من الثقافة المتوسطة كأعمال رائدة او التحقير والتشهير باعمال الابحاث الرائدة (وليس فقط فيما يتعلق بالفن) وذلك باسم الحس الجيد [٨] . لكن اولئك الاخيرون يمكنهم بدورهم ان يعتمدوا على موافقة او حتى تواطؤ كل المستهلكين الذين هم مثلهم متورطون فى اللودوكسيا بسبب من ابتعادهم عن << مراكز القيم الثقافية >> وبسبب ميلهم الطبيعي للاهتمام باخفاء حدود امكانياتهم فى الملائمة والتوفيق – وفقا لمنطق << الاخفاق الذاتي >> – الذي يظهر جيدا وبوضوح الصيغة المستخدمة غالبا من قبل قراء مجلات ونشرات التبسيط : <<هذه نشرة علمية ذات مستوى رفيع جدا وهى فى متناول الجميع>>.

هكذا يمكن ان نصل الى تهديد مكتسبات كانت ممكنة بسبب من استقلالية مجال وبسبب من قدرته على مقاومة مطلب حياتية اجتماعية، تلك التى يرمز اليها اليوم عامل الاوديمات الذى حدده كتاب القرن الماضي بشكل ضمني عندما تمردوا على فكرة ان الفن (يمكن قول نفس الشئ بالنسبة للعلم) يمكن ان يخضع لحكم الاستفتاء العام. امام هذا التهديد ثمة امكانية لاستراتيجيتين مألوفتين بشكل او آخر وفقا للمجالات وحيب درجة استقلاليتها : تعيين الحدود المهددة من قبل نمط التفكير واشكال العمل الصحفي ؛ او الخروج من البرج العاجي (وفقا للنموذج الذى دشنه اميل زولا) وذلك من اجل فرض القيم التى خرجت على المعاش داخل البرج العاجي، واستخدام كل الوسائل المتاحة فى المجالات المتخصصة او خارجها، وفى داخل المجال الصحفي نفسه، بهدف ان يفرض على الخارج مكتسبات (منجزات) واكتشافات اصبحت ممكنة بفضل الاستقلالية.

توجد ظروف اقتصادية وثقافية للوصول الى حكم علمي واضح ومعلن، لا يمكن ان نطلب بواسطة الاستفتاء العام (او استطلاعات الرأى) ان تحل أو ان تعالج مشاكل العلم (كما نفعل

ذلك احيانا بشكل غير مباشر ودون ان نعلم) وذلك دون ان ندمـر بضربة واحدة شروط الانتاج العلمي ذاتها، اى ان نلغي حـاجز الدخول الذى يحمى المجتمع العلمي (او الفني) من الغزو المدمـر لمبادئ الانتاج والتقييم الخارجي، ومن ثم الغير مناسـبة والتـى تعتبر فى غير محلها. لكن لا يجب ان نستنتج من ذلك ان الحاجز غير قابل للعبور فى *الاتجاه الآخر* أو انه من غـير الممكـن جوهريا ان نعمل على اعادة توزيع ديموقراطي لمكتسبات كـانت ممكنة بفضل الاستقلالية. ان هذا ممكن بشرط ان ندرك بوضـوح ان كل عمل يهدف الى اشاعة الانجازات الاكثر نـدرة للبحـث العلمي او الفني الاكثر تقدما يفترض وضع *احتكار وسائل توزيع* هذه المعلومات (علمية كانت أو فنية) موضع تساؤل، وان نـدرك أن المجال الصحفي يحتكر فى الواقع نقد تمثيل تطلعات العـدد الاكبر كما انه يشكل الديماجوجيـا التجاريـة لـهؤلاء الذيـن يسيطرون على وسائل التدخل بين المنتجين الثقافيين (حيث يمكن ادراج رجال السياسة بين هذه الاعداد فى هذه الحالة) وبين الكتلة الكبرى من المستهلكين.

ان المسافة بين المنتجين المحترفين (او بين منتجاتـهم) وبين المستهلكين البسطاء (قراء، مسـتمعين،مشـاهدين وايضـا ناخبين) والتى تجد اساسها فـى اسـتقلالية مجـالات الانتـاج المتخصصة هى الى حد ما مسافة كبيرة، من الصعب تجاوزهـا بشكل او بآخر وهى بشكل او بآخر غير مقبولة من وجهة نظـر المبادئ الديموقراطية، وذلك وفقا لطبيعة المجالات. وعلى عكس ماهو ظاهر، فان هذه المسافة تلاحظ ايضا فى النظام السياسـي حيث نجدها تعارض وتواجه المبادئ المعلنة. على الرغم مـن ان الوكلاء الملتزمين فى المجال الصحفي وفى المجال السياسي هـم فى علاقة تنافس وصراع مستمر وان المجـال الصحفـي هـو بطريقة معينة محتوى داخل المجال السياسي الذى يمارس داخلـه

تأثيرات قوية جدا، الا ان هذين المجالين لهم خاصيـة مشـتركة وهي انهما بشكل مباشرجدا وبشكل قريب جدا موضوعين تحـت هيمنة حكم السوق والاستفتاء العام. يتبع ذلك ان هيمنة المجـال الصحفي تقوى من نزعات الوكلاء المنخرطيـن فـي المجـال السياسي نحو الخضوع لضغط تطلعات ومطالب اعـداد كبـيرة، احيانا عاطفية وغير مفكرة او متاملة، وغالبا مـا تتكـون مـن مطالب تعبوية بسبب التعبيرات التي تتلقاها من الصحافة.

باستثناء الحالات التي تستخدم فيها الحريات والسـلطات النقدية التي تؤمن استقلاليتها، فان الصحافة وخاصة التليفزيونيـة (والتجارية) تنشط في نفس اتجاه استطلاع الـرأي، الامر الـذي يجب عليها هي نفسها ان تعمل له حساب : على الرغم مـن ان الإستطلاع يمكن ان يستخدم كأداة للديماجوجيا العقلانية السلعية الى تقوية الانغلاق حول الذات في المجال السياسي، الا انه يكون علاقة مباشرة مع الناخبين، *دون وساطة*، علاقة تضع خـارج اللعبة كل الوكلاء الافراد والوكلاء الجماعيين (مثـل الاحـزاب السياسية او النقابات) الموكلين اجتماعيـا لاعـداد وتقديـم آراء منظمة ؛ انه ينزع (يستبعد) من كل الموكلين وكل المتحدثين باسم (الفئات) تطلعاتهم (التي يشتركون فيها مع كبار كاتبي افتتاحيات الماضي) نحو احتكار التعبير الشرعي << للرأى العام >> و في نفس الوقت، قدرتهم على العمل على إعـداد نقـدي (واحيانـا جماعي كما في حالة الجمعيـات التشـريعية) لآراء حقيقيـة او يفترض انها حقيقية لما لما كلفوا به.

ذلك يجعل هيمنة التي تتزايد المجال الصحفي وهو نفسـه خاضع لهيمنة متزايدة للمنطق التجاري تـتزايد علـى المجـال السياسي المحصور دائما في نزعة الديماجوجيـا (علـى وجـه الخصوص في اللحظة التي يتدم له فيها الاستطلاعات الوسـيلة لممارستها بطريقة معقلنة) وهو ما يساهم في اضعاف اسـتقلالية

المجال السياسي وفى نفس الوقت فى اضعاف الكفاءة الموكولة لمن يقوم بتمثيل (سياسي او آخر) متذرعين فى ذلك بمؤهلاتهم <<كخبراء>> او بسلطاتهم << كحارسين للقيم الجماعية >>.

حتى ننهي حديثنا، كيف لانستدعى حالات القانونيين الذين من اجل ثمن <<ورع خبيث>>، يكونون فى وضع تخليد الايمان بان احكامهم تجد اساسها ليس فى العوامل او الشروط الخارجية، اقتصادية بشكل خاص، ولكن فى الاعراف والمبادئ السامية التى يظنون انهم حراسها ؟ ان المجال القضائي ليس ذلك الذى نعتقد بوجوده، اى، عالم خالى من كل التنازلات والمساومات مع ضرورات السياسة او الاقتصاد. لكن واقع انه نجح فى ان يعرف بهذا الشكل يساهم فى انتاج تأثيرات اجتماعية حقيقية تماما، بداية على اولئك الذين مهنتهم تتطلب ان يقولوا الحق. لكن مهما حدث للقانونيين،فان ذلك هو تجسيد صادق بشكل او آخر للنفاق والرياء الجماعي، اذا ماأتى من الشهرة العامة التى هى أبعد من ان تخضع للحقائق وللقيم السامية والعالمية، لقد انتقلوا مثل جميع الوكلاء الاجتماعيين الاخرين، بواسطة محددات مثل تلك التى تضغط عليهم وتنقلهم، تسبب أضطراب وإنقلاب الطرق او والتراتبات الوظيفية، هل هو ضغط الضروريات الاقتصادية أم اغراء النجاح الصحفي ؟

ملحق قياسي قصير:

كشف القناع عن القيود والمحددات الخفية التى تضغط على الصحفيين والتى تجعلهم يضغطون بدورهم على جميع المنتجين الثقافيين، اليس هذا – وهل يحتاج هذا الى ترديد ؟ – تعيين وتحديد للمسؤلين، وضع المتهمين على اللائحة [9]. ان هذا يسعى الى تقديم امكانية للتحرر للواحد كما الآخر، عن طريق

استعادة الوعي، بهيمنة هذه الآليات وربما اقتراح برنامج للعمـــل المشترك بين الفنانين، الكتـــاب، العلمـــاء، وايضـــا الصحفييـــن الحائزين على احتكار كل ادوات ووسائل التوزيع. فقط وحده مثل هذا التعاون يسمح بالعمل بكفاءة على انتشار المكتسبات الاكـــثر عالمية للبحث وايضا من ناحية اخرى، على العولمـــة العمليـــة لشروط الوصول الى ماهو عالمي.

الـــهـــوامـــش

١ – يمكن مثلا ان نقتنع بذلك بقراءة كتاب جان مـــارى جوليمـــوت -Jean Marie Goulemot ودانييل اوستير Daniel Oster<< كتاب الادب، كتاب وبوهيميين >>(باريس مينيرفا ١٩٩٢) حيث نجد امثلة عديدة جدا لملاحظات وتسجيلات مؤسسة لعلم الاجتماع التلقائي للوســـط الادبـــي التى ينتجها الكتاب دون ان يهتموا كثيرا بالمبدأ خصوصا فى جهودهم من اجل موضعة خصومهم او كل هؤلاء الذين يزعجونهم فى العــــالم الادبي، لكن الحدس الخاص بالمشابهات يمكن ايضا ان يقـــرأ مـــابين السطور لتحليل عمل المجال الادبي فى القرن الماضي ويقـــدم وصفـــا لوظائف خفية للمجال الادبي اليوم (كما فعل ذلك فيليـــب مـــوراى Philippe Muray.

٢ – حول ظهور فكرة الموضوعية فى الصحافة الامريكية كنتيجة لجـــهود الصحف الاجتماعية ذات الســـمعة المحترمـــة وذلـــك للتفرقـــة بيـــن المعلومات ذات العائد البسيط للصحافة الشعبية، انظر: م. شودسون

M. Schudson, Discovering the news, New York, Basic Book, 1978

حول المساهمة الخاصة بالمعارضة بين الصحفيين الذين تحولوا الى الكتابات التى تميل الى المجال الادبي والاجتماعي وبين الصحفيين القريبين من المجال السياسي، استطاعت ان تصل فى حالة فرنســـا الـــى عمليـــة تفاضلية والى خلق <<مهنة>> خاصة (مع المراسلين تحديدا)، يمكـــن قراءة :

T. Ferenczi, L'invention du journalisme en France : e,

Plon, 1993

وحول الشكل الذى تأخذه هذه المعارضة فى مجال الصحف والدوريات الاسبوعية الفرنسية وحول علاقتها مع شرائح مختلفة من القراء، انظر :

P.Bourdieu, La Distinction, Critique sociale du jugement de 1979, p. 517-526

٣ – كما فى المجال الادبي فان التسلسل وفقا للاعتبار الخارجي، النجاح فى البيع، هى تقريبا على العكس من التسلسل القئم على الإعتبار الداخلي، << الجادين >> صحفيا. تعقيد هذا التوزيع يعود الى البنية المتصلبة (وهو ما يخص المجال الادبي، الفني او القضائي) التى تتكرر بسبب وجودها داخل كل مؤسسة صحفية، صحف مكتوبة، راديو، او تليفزيون، حيث تعمل هى نفسها كمجال فرعي، التعارض بين قطب <<ثقافي>> و قطب <<تجاري>> الذى ينظم مجمل المجال بشكل يجعل منه سلسلة من الهياكل المتشابكة (من نوع : a: b: b1:b2)

٤ – انه من خلال المحددات الوقتية المفروضة غالبا بطريقة اختيارية تماما تمارس << الرقابة البنيوية >> التى لا ترى عمليا، تلك التى تلقى بثقلها على الذين يدعون للمشاركة فى البرامج التليفزيونية.

٥ – اذا كان التأكيد << لقد عفى عليه الزمن >> يمكن ان يكون له مكان اليوم فى احيان كثيرة، وبوضوح فيما هو ابعد من المجال الصحفي، مع كل الحيثيات النقدية، فذلك يرجع ايضا الى ان التطلعات المتعجلة لها مصلحة واضحة فى وضع هذا المبدأ للتقييم محل التنفيذ والذى يعطى امتيازا لا يقبل النقاش لآخر من يصل، اى، للاكثر شبابا، والذى يختزل كثيرا الى اشياء مثل المعارضة شبه الفارغة بين ماهو قبل وما هو بعد، واعفائهم من تقديم براهينهم وادلتهم.

٦ – يكفي لهذا ان نذكر مشاكل الصحفي (مثل الاختيار بين TF1 و ART) فى لغة يمكن ان تكون تلك الخاصة بلغة الصحافة : << التليفزيون والثقافة : بين التعايش والتمييز >>

(D. Wolton, Eloge du grand public, Paris, Flammarion, 1990

وهو مايسمح بالقول بشكل عابر، انه لكي تحاول ان تبرهن علـــى ان التحليل العلمي يمكن ان يكون خشنا ان لم يكن شاقا ومرهقا، الـــى اى درجة القطيعة مع ماهو مكون مسبقا ومع مســـلمات اللغـــة العاديـــة، وبشكل خاص اللغة الصحفية، ان هذا يفرض كشرط للبنـــاء المناســـب للموضوع.

٧ - من الواجب ان يوضع بعيدا، داخل هذه الفئة التى تقع علـــى الحـــدود المائعة الغير واضحة، المنتجين الثقافيين الذين وفقا لتقليد يتمثل فى انـــه بمجرد ظهور انتاج << صناعي >> فى مادة الثقافة، يطلب من مـــادة الصحافة <<امكانيات للوجود>> وليس ســـلطات (تحكـــم او رســـامة تحديدا) قادرة على ان تعمل علـــى المجـــالات المتخصصـــة (تـــأثير جدانوف).

٨ - عدد من الاحتجاجات الحديثة للفن المعاصر لا تتميز مطلقـــا، اذا لـــم يكن بسبب تطلعاتها، بسبب الاحكام التى يمكن الحصول عليها اذا ما تم اخضاع الفن الطليعي للاستفتاء العام او الى ما يعود الـــى اســـتطلاع الرأى بشكل خاص.

٩ -لتجنب انتاج تأثير << التشبيك >> او مخاطرة الوقـــوع فـــى تشـــبيه كاريكاتوري *عندما ننشر مثل تلك الافتراضات* المسجلة او المطبوعـــة، لقد تخلينا كثيرا عن اعادة نشر وثائق يمكنها ان تعطى كل دعمها لمـــا نعرضه و التى يمكنها بجانب ذلك ان تذكر القارئ، عن طريق تـــأثير التوضيح الذى ينفى الابتزال باقتطاعه من السياق المعتاد، كل الامثلـــة المتعادلة التى يجعلها روتين النظرات العادية تمر دون انتباه.

حول الالعاب الاوليمبية

برنامج للتحليل

ماالذى ننتظره على وجه التحديد عندما نتحدث عن الالعاب الاوليمبية ؟ المرجع الظاهري هو التظاهرة <الفعلية>، اى عرض رياضي تماما، مواجهات بين اللاعبين الذين حضروا من جميع ارجاء العالم يسيرون فى طابور العرض تحت رمز الافكار العالمية، وطقوس ذات طبيعة وطنية قوية ان لم تكن قومية. مجموعات وطنية، توزيع للميداليات بصحبة الاعلام والاناشيد الوطنية، المرجع الخفي هو مجمل تعبيرات هذا العرض الذى تنقله وتبثه التليفزيونات، مختارات وطنية تعمل على مادة غير متميزة قوميا من حيث المظهر (بما ان المنافسة هى منافسة عالمية) و تقدم على ممرات الاستاد. هدف خفي غير مرئي بشكل مزدوج، فقط احدا لايراه فى كليته، انه لايوجد، لايرى انه لم يراه. يمكن لكل مشاهد للتليفزيون ان يتملكه وهم انه يشاهد العرض الاوليمبي على حقيقته.

واقع ان كل تليفزيون وطني يخصص مساحة اكثر لمتابعة ما او للعبة رياضية، وهو ما يقدم رضاءا للزهو والكبرياء الوطني او القومي، العرض التليفزيوني يظهر كمجرد تسجيل بسيط الا انه يحول المنافسة بين الرياضيين، بين المتسابقين الذين ينتمون الى كل بلدان العالم الى مواجهة بين الابطال (بمعنى المقاتلين الموكلين شرعا) من مختلف الامم.

لفهم عملية التحويل الرمزي هذه، يتوجب بداية تحليل البناء الاجتماعي للعرض الاوليمبي، للمنافسات ذاتها، لكن ايضا

لكل <<التظاهرات>> التى تحيط بها، مثل عــروض الافتتــاح والختام. يجب بعد ذلك تحليل عملية انتاج الصورة التليفزيونيــة الخاصة بهذا العرض، نلك الصورة بصفتــها حـامل (وسـيط) لمقاطع اعلانية، تتحول الى منتجات تجاريــة تخضــع لمنطــق السوق، ويجب بالتالي ان تكون مصممة بطريقة تسمح بـالوصول الى والاحتفاظ لاطول مدة ممكنة باكبر عدد ممكن من الجمـهور: بالاضافة الى انها تقدم في ساعات ذروة الاقبــال فــى البلــدان المسيطرة اقتصاديا، يجب ان تخضع لطلب الجمهور، بتطويعــها لما يفضله الجمهور ذو المشارب الوطنية المتنوعة بالنسبة لــهذه اللعبة اوتلك، وحتى المشاعر الوطنية والقومية وذلك عن طريـق عملية اختيار فطن للالعاب وللمباريات القــادرة علــى تحقيـق نجاحات لمواطنيهم وارضاء لمشاعرهم القومية. يتبع ذلك مثــلا ان الاهمية النسبية للالعاب المختلفة بالنسبة للمنظمات والــهيئات الرياضية الدولية تميل الى الاعتماد اكثر فاكثر علــى نجاحاتــها التليفزيونية وربحيتها الاقتصادية المرتبطــة بذلــك. ان شــروط وقيود البث التليفزيوني تؤثر ايضا وبشكل متزايد اكثر فاكثر على اختيار الالعاب الاوليمبية، الاماكن وايضا التوقيت الذى تجــرى فيه المباريات، بل وطريقة سريان المباريات ذاتها وكذلك مراسـم الاحتفال. بالتالي لهذا السبب نجد انه فى دورة الالعاب الاوليمبيـة فى سيول فان توقيت المباريات النهائية الاساسية فى العاب القوى قد تم تحديده (وفقا لبنود من الاتفاقات التى انتهت الــى شــروط مالية هائلة) بطريقة تسمح باجراء هذه المباريات فى اوقات ذروة الاقبال التليفزيوني فى بداية الســهرة فــى الولايــات المتحــدة الامريكية.

يجب اذن ان نأخذ كهدف مجمل مجال انتــاج الالعــاب الاوليمبية <<كعرض تليفزيوني>>، اوبشكل افضل كما فى لغــة التسويق كوسيلة (آداة) للاعلام * اى مجمل العلاقات الموضوعية

بين المؤسسات والهيئات المشاركة فى المنافسة على انتاج وتسويق الصور والاحاديث الخاصة بالالعاب : لقد تحولت اللجنة الاوليمبية الدولية تدريجيا الى مؤسسة تجارية كبرى تبلغ ميزانيتها السنوية عشرين مليون دولار، يهيمن عليها من قبل بطانة من المديرين الرياضيين وممثلي الشركات الصناعية الكبرى (اديداس، كوكا كولا، الخ) الذين يتحكمون فى بيع حقوق بث واذاعة المباريات (التى قدرت بما قيمته ستمائة ثلاث وثلاثين <٦٣٣> مليار دولار فى دورة الالعاب الاوليمبية فى برشلونة) وكذلك حقوق كفالة واحتكار الاعلانات بالاضافة الى اختيار المدن الاوليمبية ؛ شركات التليفزيون الكبرى (على وجه الخصوص امريكية) المتنافسة (على مستوى الدول او الدوائر اللغوية) من اجل حقوق البث التليفزيوني : الشركات الكبرىالمتعددة الجنسيات (كوكاكولا، كوداك، ريكو، فيليبس، الخ) تتنافس من اجل الحقوق العالمية للاشتراك فى عرض منتجاتها مع احداث الالعاب الاوليمبية (باعتبارهم الموردين الرسميين)[١] ؛ وفى النهاية منتجي الصور والتعليقات الموجه للتليفزيون، للراديو او الى الصحف (وصل عددهم الى عشرة آلاف اثناء دورة برشلونة)، اولئك الذين ارتبطوا فى علاقات تنافسية متوائمة لتوجيه عملهم الفردي والجماعي لانجاز تقديم عرض الالعاب، اختيار، تأطير، ومونتاج للصور، وعمل التعليقات. فى النهاية من الواجب تحليل التأثيرات المختلفة لتكثيف المنافسة بين الامم تلك التى يصنعها التليفزيون من خلال عولمة العرض الاوليمبي، مثل ظهور<<سياسة رياضية>> للدول موجهة نحو تحقيق النجاحات الدولية، الاستغلال الاقتصادي والرمزي للانتصارات <<وتحويل الانتاج الرياضي الى صناعة>> تدفع الى استخدام المنشطات وممارسة اشكال سلطوية فى التدريبات[٢] . تماما مثل مايحدث فى مجال الانتاج

الفني، فان الانشطة المرئية المباشرة للفنان تخفي اعمال الوكلاء والعملاء المشاركين خلف العمل ذاته، النقاد، مديرو صالات العرض، امناء المتاحف، الخ. الذين من خلال وبسبب منافساتهم يتعاونون على انتاج مهنى وقيمة للعمل الفني وبشكل اكثر عمقا، على الاعتقاد فى قيمة الفن والفنان الذى هو اساس كل اللعبة الفنية [٣] ، نفس الشئ يحدث فى اللعبة الرياضية، بطل سباق المائة متر اوالالعاب المتعددة المسابقات (مثل السباحة، الجمباز،م.)، ليسوا الا موضوعا ظاهريا لعرض يتم انتاجه بشكل ما مرتين : مرة اولى من جانب مجموع وكلاء الافراد الرياضيين/ المدربين، الاطباء، المنظمين، الحكام، مراقبوا تسجيل الوقت، مخرج العرض، كل هؤلاء الذين يتنافسون على حسن سير المنافسة الرياضية فى الملعب ؛ ومرة اخرى بواسطة كل هؤلاء الذين يقومون باعادة وضع كل هذا من خلال صور وتعليقات واحاديث وخطب تتعلق بهذا العرض، فى اغلب الاحيان يتم كل ذلك تحت ضغط المنافسة ومجمل نظام القيود والشروط الذى يلقى بثقله من خلال شبكة العلاقات الموضوعية التى انخرطوا فيها.

هذا، وبشرط القيام ببحث وتفكير متأمل يسعى الى حمل الوعي بالآليات التى تتحكم فى ممارسات العملاء الوكلاء المرتبطين بهذا << البناء الاجتماعي ذى المستويين >> يمكن لهؤلاء الذين يشاركون فى الحدث الكلي والذين يشيرون الينا عندما نتحدث عن << الالعاب الاوليمبية >> ان يؤمنوا نجاح جماعي لهذه الآليات التى يخضع كل واحد لتأثيراتها مساهمين فى نفس الوقت فى العمل الذى يمارسونه على كل الآخرين ويحبذون بالتالي امكانيات كامنة لسرور وبشاشة امكانيات النزعة العالمية، تلك المهددة اليوم بالفناء والتدمير الذى يهيمن على الالعاب الاوليمبية.

الهوامش

* – هذا النص هو شكل مختصر لمداخلة قدمتها اثناء اللقاء السنوي للجمعية الفلسفية حول دراسة الرياضة والذى عقد فى برلين فى الثاني من اكتوبر ١٩٩٢.

١ – يميل الراعين للالعاب من محتكري الاعلانات الى تقديم مجموعة متكاملة من البرامج الاعلامية ترتكز على الانفراد حسب فئة الانتاج واستمرارية الرسالة الاعلامية خلال فترة تمتد الى اربعة اعوام. البرنامج لكل واحدة من المسابقات الخمس والسبعون يتضمن الاعلانات داخل الاستاد . وضع المورد الرسمي. استعمال الشعارات والرموز التجارية وكذلك امكانيات استخدام الاسم التجاري " بمتوسط سبعين مليون فرنك. كان لدى الشريك الرسمي من هذا النوع عام ١٩٨٦ ان يمتلك نصيبيه فى " اكبر الاحداث التليفزيونية العالمية " مع عرض وحيد ومتفرد اكثر اهمية بطبيعة الحال من كل رياضة اخرى. (انظر:
(Paris. Flammarion. 1992. P. 137

٢ – تضع الالعاب الرياضية ذات المستوى العالي جدا وبشكل متزايد اكثر فاكثر فى التطبيق تكنولوجيا صناعية تهدف الى تحويل الجسد الانساني الى آلة ذات كفاءة تقاوم الانهاك وذلك بتعبئة مختلف العلوم البيولوجية والفسيولوجية. منطق المنافسة بين الفرق الوطنية وبين الدول يفرض دائما امتياز اللجوء الى المنشطات الممنوعة والى طرق فى التدريب مشكوك فى امرها (انظر : J. Hoberman. Engines. The Science of Performance and the Desumaniwation of Sport. New York. The Free (Press.1992.

٣ – انظر: .Paris .
(Edition du Seuil. 1992.

٤ – مؤشر قاسي للقيمة الحقيقية لمختلف ممثلي العرض الاوليمبي-التجاري show-business . الهدايا التى وزعت من جانب السلطات الكورية على الشخصيات المختلفة بلغت ١١٠٠ دولار لاعضاء اللجنة الاوليمبية الدولية وحتى ١١٠ دولار للاعبين

٥ – يمكن ان نتخيل مثلا ميثاق اوليمبي يحدد المبادئ التى يجب ان يلتزم بها الوكلاء المنخرطين فى عملية انتاج العرض وفى انتاج تقديم هذا العرض عبر التليفزيون (يبدأ بطبيعة الحال بالمسؤلين الاداريين للجنة الاوليمبية الذين هم اول من يستفيد من انتهاك تعليمات وقواعد النزاهة التي اوكل اليهم ان يحترموها)، او انشاء قسم اوليمبي لا يلزم اللاعبين فقط (يمنعهم مثلا من القيام بتظاهرات وطنية كتلك التى تتمثل فى ارتداء او التلحف بالعلم الوطني لعمل دورة شرفية داخل الاستاد). لكن يكون ملزما ايضا لهؤلاء الذين ينتجون ويعلقون على الصور من اجل استغلالها.

ملحق

الصحافة والسياسة

كيف نفسر هذا العنف المتطرف لـردود الافعـال التـى اثارها هذا التحليل لدى الصحفيين الفرنسيين الاكـثر اطلاعـا ؟ لايمكن ان نفسر هذا الا لأنهم قد شعروا بانهم مستهدفين، ذلـك على الرغم من كل النفي الضمني الذى ابديته سابقا (على الاقـل بالنسبة لهؤلاء الصحفيين الذين جاء ذكرهـم مباشـرة او غـير مباشرة عبر المقربين منهم او من خلال الامثلة المتشـابهة). ان لهجة السخط الشجاع التى اظهروها هي دون شك محسوبة مـن ناحية " لتأثير النقل " : ان هذا يسبب بالضرورة اختفاء النتيجـة المصاحبة الغير مدونة للحديث، النغمة، الاشارة، التعبـيرات، اى كل ذلك الذى يشير على الفور لدى لمتفرج حسن النيـالى الـى الفرق بين خطاب معد بهدف الافهام والاقناع وبين مقالة الـهجاء الهجومية كما رأى ذلك معظمهم. لكن ذلك يفسر تحديدا ببعـض الصفات الاكثر تقليدية للرؤية الصحفية (التى امكنها ان تقودهـم فى اوقات اخرى الى ان يشتعلوا حماسا تجاه كتاب مثل كتـاب " بؤس العالم " : كالميل للتعريف من جديد بذلك الـذى يسـمى او يطلق عليه <<بالاكتشاف>> او الميل الطبيعي لتفضيل الاعتبـار الاكثر مباشرة فى رؤية العالم الاجتماعي، اى للافراد، افعالـهم، وعلى الخصوص اساءاتهم، فى توقع غالبا ما يكون ذلك الخـلص بالمحاكمات وبالتشهير، عندما تقرر البنى والآليات الخفية (وهـى هنا الآليات الخاصة بالمجال الصحفـي) التـى توجـه الافعـال والافكار التى يسمح الوعي بها بالتسامح والتفاهم بدلا من الادانـة

الساخطة ؛ او مرة اخرى الميل الى الاهتمام <<بالنتائج>> (المفترضة) اكثر من الإهتمام بالطريق الذى يؤدى اليها. وهكذا لدى ذكرى لهذا الصحفي الذى اقترح على الإشتراك فى ندوة حول المدارس العليا بمجرد ظهور كتابي (<اصالة الدولة> بيان لعشر سنوات من الابحاث)، يتحدث فيها رئيس جمعية الخريجين القدماء مستهدفا ان يجعلني اتحدث <<ضد>> ولكنه لم يفهم بانني يمكن ان ارفض ذلك. بنفس الطريقة، << الاقلام الكبيرة >> التى انخرطت فى هذه المعركة ضد كتابي قد وضعت ببساطة وبدون قيد او شرط الطريقة التى طبقتها بين قوسين، (وعلى وجه التحديد تحليل العالم الصحفي باعتباره مجال)، واختزاله هكذا دون حتى ان يتعرفوا عليه، الى سلسلة من اتخاذ المواقف المبتذلة، المشحونة ببعض الضجة الجدالية الهجومية.

هذه الطريقة هى مع ذلك تلك التى اريد ان اعرضها من جديد محاولا عرض، مع مخاطر سؤ الفهم مرة اخرى، كيف ان المجال الصحفي ينتج ويفرض رؤية خاصة تماما عن المجال السياسي الذى يجد اساسه فى بنية المجال الصحفي وفى المصالح الخاصة للصحفيين الذين يعملون فيه.

فى عالم خاضع لضرورة ان تكون مثيرة للضجر، وبالميل الى ان تتعرى باى ثمن، فرض على السياسة ان تظهر كموضوع صعب نستبعده بقدر الامكان من ساعات الاقبال الكبير فى التليفزيون، انها بمثابة عرض قليل الاثارة ان لم يكن يثير الاحباط وصعب على المعالجة، ولذلك يجب جعلها مثيرة للاهتمام. من هنا هذا الميل الذى يلاحظ فى كل مكان بالولايات المتحدة الامريكية، اكثر من اوروبا، للتضحية اكثر فاكثر، كتاب الافتتاحيات، تحقيقات المراسلين، حتى كتاب الالعاب والتسالى، الاخبا (المعلومات)، التحليل، المقابلات المعمقة، مناقشات الخبراء

اوال تحقيقات و المنوعات، وخصوصـــا المواجــهات الكلاميــة (عروض الكلام) المفرغة من المعنى talk shows بين متداخليــن مفوضين قابلين للتبادل (ومنها الجريمة التى لاتســامح تجاهـــها والتى ذكرت بعض الامثلة عليها). لفهم ذلك الذى يقال حقـــا او على الاقل ذلك الذى لا يمكن ان يقال فى مثل هـــذه التبــادلات المختلفة، من الواجب ان نحلل بالتفصيل ظروف اختيار اولئـــك الذين يطلق عليهم فى الولايات المتحدة اســم : Pannelists اى ان تكون دائما تحت الطلب، مستعد دائما للحضـــور والمشــاركة، ولكن ايضا لان تلعب اللعبة ، بقبولك الردعلى كل الاسئلة، حتــى تلك التى تصدم اكثر او تلك الاكـــثر ســخافة التـــى يفرضـــها الصحفيون (هذا هو تعريف المصطلح tutologo ذاته؛ ان تكـــون مستعدا لكل شئ ولكل التنـــازلات (حـــول الموضـــوع وحـــول المشاركين الآخرين، الخ). عليك ان تمـــارس كـــل المســاومات والتنازلات حتى تظل موجودا وحتى تؤمن ايضا الفوائد والارباح المباشرة والغير مباشرة : الشــهرة <<الاعلاميـــة>>، مكانـــة خاصة لدى المؤسسات الصحفية، دعوات لاعطــاء محــاضرات ومؤتمرات مربحة الخ ؛ يلاحظ خاصـــــة فـــى حـــالات مـــاقبل المقابلات التى يقدمها بعض المنتجين فى الولايات المتحدة وبشكل متزايد فى اوروبا لاختيار هؤلاء المحـــــترفين Panelists، ذلـــك الاعداد فى اتخاذ المواقف البسيطة بتعبيرات واضحـــة وبتجنـــب الارتباك او التورط فى المعارف المعقدة (وفقـــا للمثـــل : كلمـــا عرفت اقل كلما اصبحت افضل The less you know the better off you are).

لكن الصحفيون الذين يتذرعون بان ذلك هـــو مايطلبـــه الجمهور حتى يـــبرروا سياســـة التبســيط الديماجوجيـــة هـــذه (المعارضة تماما للاهتمام الديموقراطي للاعلام والتعليـــم عـــبر التنوع)لايفعلوا الا اسقاط نزعاتهم الخاصة على رؤيتهم للعـــالم ؛

خاصة عندما يدفعهم الخوف من الملل الـــي اعطـاء الاولويـة للعراك بدلا من النقاش، للخلاف والهجوم بدلا مـن الجـدل، اى لوضع كل شئ موضع التنفيذ لتفضيل المواجهة والصـدام بيـن الافراد (ورجال السياسة تحديدا) بدلا من ابراز وتحديد المواجهة بين حيثياتهم، اى بين ذلك الذى يكون هدف الحوار والنقاش ذاته، عجز الميزانية، تخفيض الضرائب، او الدين الخارجي. فى الواقـع ان ماهو اساسي فى مهاراتهم وكفاءاتهم مؤسس علـى حميمية الاتصالات وعلى السرية (ان لم يكن الاشاعات والاغتياب) اكـثر من استناده الى الموضوعية، الملاحظة، التقرير والبحث،انهم فـى واقع الامر يميلون الى جلب كل شئ الى ارض هم علـى علـم وخبرة بها، باهتمامهم باللغة وباللاعبين اكـثر مـن اهتمامـهم بمضمون الموضوعـات المطروحـة، بالاسـئلة ذات الصبغـة التكتيكية سياسيا اكثر من اهتمامهم بمادة الحوارات (النـدوات)، بالتأثير السياسي للخطابات من داخل منطق المجال السياسي (تلك الخاصة بالتحالفات، التجمعات او بالازمـات والنزاعـات بيـن الافراد) اكثر من محتواها (لمجرد انهم يذهبون الى حد اخـتراع احداث مصطنعة تماما ويفرضونها على النقاش كما حدث اثنـاء الانتخابات الاخيرة فى فرنسا، بصدد ما اذا كـان الحـوار بيـن اليسار واليمين يجب ان يكون بين اثنين – اى بين جوسبان زعيم المعارضة وبين جوبيه رئيس وزراء اليمين – او بين اربعـة – جوزبان وروبرت هيه حليفه الشيوعي من جانب وبيـن جوبيـه وليوتار حليفه من تيار الوسط من جانب آخر – ، مداخلة هى من حيث المظاهر الحيادية كانت بمثابة اجبـار سياسـي بتفضيـل الاطراف المحافظة، وبالعمل على اظهار الخلافات المتوقعة بيـن اطراف اليسار). الصحفيون بسبب من موقفهم الغامض فى عـالم السياسة لأنهم نشطاء ومؤثرين جدا دون ان يكونـوا مـع ذلـك اعضاء كاملي العضوية وحيث يمكنهم ان يقدموا لرجال السياسـة

خدمات رمزية لاغنى عنها والتى لايمكن لهم ان يؤمنوهـا هـم انفسهم (باستثناء المجال الادبي اليوم حيث يلعبون بشـكل كـامل لعبة تبادل المصالح <شيلنى وشيلك> انهم ميالون بشكل تلقـائي حسب وجهة نظر تيرسيت thersite الى فلسفة الشك التى تدفعـهم الى البحث عن اسباب اتخاذ المواقف الاقل اهميـة والمعتقـدات الاكثر اخلاصا للمصالح التى ترافق المواقف فى المجال السياسي (مثل المنافسة داخل حزب او << تيار >>).

كل هذا يقودهم الى انتاج وعرض، سواء على مسـتوى ماهو منتظر من تحليقاتهم السياسية، او فـى اسـئلة مقابلاتـهم الصحفية، نظرة كلبية للعالم السياسي، نوع من حلبـة او سـاحة للمناورات الطموحة بلا ايمان، موجهة من قبل المصالح المرتبطة بالمنافسة التى تواجههم. (من الصحيح قول ذلك بشكل عـابر، انهم يتلقون التشجيع هناك من قبل اعمال المستشارين والخـبراء السياسيين، اولئك الوسطاء الموكل اليهم مساعدة رجال السياسـة فى هذا النوع من التسويق السياسي المحسـوب ضمنيـا دون ان يكون بالضرورة فظا ومن الضـروري بشـكل متزايد اكـثر فاكثرلتحقيق النجاح السياسي ان يعدل من وضعه وفقا لمطـالب المجال الصحفي، الذى هو عبـارة عـن ورشـة حقيقيـة << >> تساهم بشكل متزايد فى صنع مكانـة رجال السياسة وشهرتهم). هذا الاهتمام الخاص << بعالم السياسة الصغير >> وللتأثيرات والنتائج التى تعود اليه يسعى الى احداث قطيعة (انفصام) مع وجهة نظر الجمهور او على الاقل مع اجزاء منه مهتمة بالنتائج الواقعية (العقلية) التى يمكن للمواقف السياسية ان تحققها بالنسبة لوجودهم وبالنسبة للعالم الاجتمـاعي. قطيعـة تدعمت وتضاعفت بشكل هائل بالنسبة لنجوم التليفزيون بشـكل خاص، بسبب بعد المسافة الاجتماعية الملازم لذوى الامتيـازات (المحظوظين) الاقتصادية والاجتماعية. فى الواقع نحن نعرف انه

منذ سنوات الستينيات يضيف المشاهير من نجوم الاعلام فى الولايات المتحدة الامريكية وفى معظم البلدان الاوروبية الى مرتباتهم العالية جدا والتىتصل الى مائة الف دولار فى اوروبا والى عدة ملايين على الجانب الامريكي [٢] دخول اخرى خفية، غالبا مفرطة ومرتبطة بالاشتراك فى عروض-الكلام talk shows ، او فى دورة من المحاضرات، فى التعاون المنتظم مع الصحف وفى <<عمليات التطهير>> خصوصا فى اجتماعات التجمعات المهنية (من هنا نرى بالتالي ان تفكك بنية توزيع السلطة والامتيازات فى المجال الصحفي لايؤدى الا الى تعاظم الظاهرة، باعتبار انه بجانب الوكلاء الرأسماليين الصغار الذين يجب ان يحافظواعلى و ان يزيدوا من رأس مالهم الرمزي عن طريق شاشات التليفزيون (وهو ضروري لهم حتى يحتفظوا بقيمة اسهمهم فى سوق المؤتمرات والندوات وكذلك فى عمليات <<التطهير>>، الامر الذى يؤدي الى تطوير نوع من البروليتاريا الرثة بشكل واسع مدانة بسبب هشاشة وعدم استقرار اوضاعها مما يدفعها الى ممارسة نوع من الرقابة الذاتية [٣] .

اضيف الى هذه التأثيرات التأثيرات الخاصة بالمنافسة داخل المجال الصحفي التى عرضتها من قبل مثل الخضوع للاثارة والميل لتفضيل المعلومات الجديدة والاكثر صعوبة فى الحصول عليها دون مناقشة، او المزايدة التى تشجع التسابق على التفسير الاكثر حذقا وبراعة، ذلك الذى يكون فى اغلب الاحيان الاكثر سذاجة، او ايضا العاب التنبؤ والحظ الماحية للذاكرة الخاصة بعمليات صفقات الاعمال، التوقعات والتكهنات الغير مكلفة (تقترب من الرهانات الرياضية) وفى نفس الوقت تؤمن الافلات الكامل من اى عقاب لانها محمية بالنسيان الذى يؤدى الى عدم استمرار التسلسل الصحفي التاريخي الى حد متقن تقريبا وكذلك الى الدوران السريع للامتثالية التقليدية المتزايدة (مثلا

اولئك الذين استدعوا الصحفيين من كل البلاد ليمضوا بضعة اشهر بعد عام ١٩٨٩، كي يعظموا ويمجدوا البزوغ الرائع لهذه الديموقراطيات الجديدة وصولا الى ادانة الحروب العرقية الدنيئة والبشعة)

كل هذه الآليات تتسابق على انتاج تأثير عام لعدم التسييس او بشكل اكثر تحديدا الوصول الى نوع من خيبة الامل من السياسة. يميل البحث عن التسلية ، دون حاجة الى ان يرغب في ذلك ضمنيا، الى تحويل الانتباه نحو عرض او(فضيحة) فى كل مرة تطرح فيها الحياة السياسية سؤال هام لكنه يكون مثيرا للضجر والسأم، او بطريقة اكثر حذقا، احضار ذلك الذى يطلق عليه اسم <<الوقائع>> الاحداث الجارية، فى رابسودية من الاحداث متنوعة غالبا تقع كما فى الحالة النموذجية لمحاكمة ج. سيمبسون، فى وضع وسطي بين الاحداث المتفرقة وبين العرض المسرحي show ، كل ذلك فى تتابع وتسلسل مضطرب وغير منسجم وبلا معنى للاحداث المرصوصة بعضها الى جانب بعض بسبب من مصادفة تلاقي الاشياء المتتابعة، هزة ارضية فى تركيا مع تقديم خطة للتقشف فى الميزانية، انتصار رياضي مع محاكمة مثيرة، ذلك الذى يختزل الى حد التفاهة بتقليصه الى هذه الدرجة من الرؤية اللحظية، الرؤية الحالية المباشرة المقطوعة عن كل ماسبقها والتى لا علاقة لها بنتائجها. ان غياب المصلحة فى التغييرات غير محسوس، اى، لكل العمليات من نوع عملية انحراف القارات، تظل غير مقدرة وغير قابلة للادراك فى اللحظة الآنية، ولا يكشف عن تأثيراتها بشكل كامل الا مع مرور الزمن، يؤدى ذلك الى مضاعفة نتائج فقدان الذاكرة البنيوي الذى يفضل منطق التفكير يوما بيوم والمنافسة التى تفرض تحديد ما هو هام وجديد (الاثارة) تحكم على الصحفيين، اولئك العاملين باليومية لكل ماهو يومي، وتدفعهم الى تقديم

صورة لحظية وآنية متقطعة بلا اتصال عن العالم. بسبب افتقاد الوقت، وخصوصا لعدم توفر المصلحة والمعلومات (ان عملهم في التوثيق ينحصر في اغلب الاحيان في قراءة مقالات الصحف المخصصة لنفس الموضوع)، لا يمكنهم العمل على جعل الاحداث (مثلا حادث عنف في مدرسة) مفهومة فعلا بربطها واحلالها في نظام العلاقات الذى ادخلت فيه (كما ان التكوين العائلي نفسه مرتبط بسوق العمل، الذى بدوره مرتبط بالسياسة فيما يخص موضوع الضرائب الخ). انهم يتلقون التشجيع دون شك في كل هذا بدوافع وميول رجال السياسة، وعلى وجه الخصوص المسؤلين الحكوميين الذين يشجعون بدورهم على تشديد اللهجة في قراراتهم وفي جهودهم حتى تصبح معروفة، حول المشروعات القصيرة الامد ، مع << تأثيرات الاعلان >>، حتى اقرار الافعال دون تأثيرات ملحوظة على الفور.

هذه الرؤية المجزأة والمجزأة (بفتح وكسر الزال)، تجد تحققها النموذجي في الصورة التي تقدمها الاحداث التليفزيونية عن العالم، تتابع لقصص ذات مظهر خالي من اى معنى، تنتهي بان تتجمع كلها، عروض لاتتوقف للشعوب البائسة، تسلسل لاحداث تعرض دون تفسير، تختفي دون تفسير ودون حل، اليوم زائير، بالامس كانت بيافرا، وغدا الكونجو، احداث تسلب وتفرغ بالتالي من كل ضرورة سياسية، لايمكنها في افضل الاحوال الا ان تخلق موجة من الاهتمام الانساني. هذه المآسي المقطوعة الصلات التي تتوالى دون توقعات تاريخية لايتم تفريقها فعلا عن الكوارث الطبيعية، الاعاصير، حرائق الغابات، الفياضانات التي هي ايضا موجودة بكثرة في << الاحداث >> لانها صحفيا اشياء تقليدية، ذلك حتى لانقول انها طقوسية، على وجه الخصوص سهلة ولا تكلف كثيرا في تغطيتها. اما فيما يتعلق بضحاياها، فانهم لم يوجدوا بعد حتى يثيروا حالة تضامن او غضب سياسي

حقا ليس باكثر من حالة خروج قطارعن القضبان او الحـــوادث الاخرى. وهكذا فان منطق المجال الصحفي من خلال الشـــكل الخاص الذى يضفيه عليه التنافس تحديدا ومن خـــلال الروتيـــن وعادات التفكير التى يفرضها دون مناقشة، ينتج بـــالفعل تمثيـــلا للعالم هو صورة لفسفة للتاريخ تنظر اليه باعتباره تتابع بلا معنى للكوارث التى لانفهم منها شيئا والتى لا تستطيع تجاهها عمـل اى شئ. هذا العالم الملئ بالحروب العرقية وبالكراهية العنصريـــة، بالعنف وبالجريمة ليس الا بيئة لتهديد غير قابل للفهم ومثير للقلق يجب قبل كل شئ الانسحاب والحماية منه. بمجرد انه يضـــاعف من تعبيرات تحقير الجرائم العرقية او العنصرية (كمـــا يحـــدث غالبا، خصوصا فى حالة افريقيا او << الضواحـــي >>، فـــان الاستدعاء الصحفي للعالم لم يتم حتى يعبئ او يســـيس، علـــى العكس انه لايستطيع الا المساهمة فى زيادة الخـــوف المرضـــي وكراهية الاجانب، تماما مثل الوهم بان الجريمة والعنف اللـــذان لايكفان عن الازدياد يؤديان الى زيادة القلق والـــهلع المرضـــي للنظرة الامنية. لا يقدم الشعور بالعالم حسب الصورة التى يقدمها التليفزيون موقف عام لاشياء زائلة تتزاوج مع الانطبـــاع الـــذى يؤدي الى قطيعة الى حد ما، على طريقة رياضة المستوى العالي التى تؤدي الى قطيعة مشابهة بين اللاعبيـــن والمشـــاهدين، ان اللعبة السياسية هي من شأن المحترفين، ذلك يشجع من هم اقـــل تسيسا بوجه خاص، عدم التزام قدري ملائم بوضوح للحفاظ على النظام القائم. فى الواقع يجب تثبيت العقيدة فى الجسد فى قـــدرة << مقاومة >> الشعب (مقاومة اكيدة لكنها محدودة) مـــن اجـــل الاعتراض مع بعض << النقد الثقافي >> المعـــروف بانـــه << مابعد الحداثي >> وبان احتقار منتجي التليفزيون، القريبين اكـــثر فاكثرمن المعلنين فى كل شروط عملهم، فى اهدافهم (البحث عـــن الاقبال الاقصى وبالتالي << اكثر قليلا >> يســـمح << بـــالبيع

بشكل افضل >>)، كما ان طريقتهم فى التفكير تستطيع ان تجـــد حدها او علاجها الخرافي فـــى الاحتقـــار النشـــط للمشـــاهدين (معروضا بشكل خاص بطريقة الانتقال السريع بين شئ وآخـــر ZAPPING : التمسك بما هو عالمي بالرغبة فـــى الدخـــول فـــى المزايدة التأملية للعبة الاستراتيجية من نوع << انك تعرف اننـــى اعرف >> والقدرة على معارضة << قراءة >> من المســـتوى الثالث والرابع للرسائل << التهكمية ومابعد النصوصية >> التـــى تظهر الاحتقار المتلاعب لمنتجي التليفزيون وللمعلنين، هذا يصب فى الواقع فى واحد من اكثر الاشكال انحرافا للوهم المدرسي فـــى شكله الشعبوي.

المحتويات

الموضوع | الصفحة

المترجم :

- درويش الحلوجي ينهي حاليا اطروحة دكتوراة فـــى علم اجتماع المعرفة بجامعة السربون بباريس
- تخرج من كلية العلوم جامعة القــاهرة عــام ١٩٧٣ (كيمياء / فيزياء)
- عمل فى مجال البحث العلمـــي بــالمركز القومـــي للبحوث العلمية بالقاهرة حتى عام ١٩٨٠ ثـــم فـــى المركز الوطني للبحوث العلمية بفرنسا عـــام ١٩٨١ (CNRS)
- توجه الى مجالات الدراسة والبحـــث فـــى العلـــوم الاجتماعية منذ عـــام ١٩٨٣ حيـث حصـل علـــى دبلومات الدراسات العليـــا المعمقـــة (DEA) فـــى التاريخ (جامعة السربون باريس٤ عـــام ١٩٨٤) - علم الاجتماع (السربون ١٩٨٥) - علـم الاجتمـاع (المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية EHESS١٩٩٥)
- حصل على دبلوم الدراســات العليـا المتخصصـة DESS من جامعة جوسيه (باريس٧) فـــى تطبيـــق علوم المعلومات فى مجـــالات الادارة الاقتصاديـــة والاجتماعية (AIGES)
- له عدد من الدراســات الاكاديميـة فـــى المجـــالات السابقة.

- **صدر له عدد من الترجمات منها :**

- الكون : البحث عن لحظة الميلاد تأليف هوبرت ريفز (دار المستقبل العربي ١٩٩٦)
- ابستمولوجيا "نظرية المعرفة" تأليف جاستون باشلار (دار المستقبل العربي ١٩٩٨)
- عن التليفزيون وآليات التلاعب بالعقول تأليف بيير بورديو (المحروسة ١٩٩٩)

- **تحت الإصدار:**

- النار "التحليل النفسي للنار" – تأليف جاستون باشلار
- "الثوابت والمتغيرات الدينية فى الجزائر المعاصرة" – تأليف فاني كولونا
- "فن الإقناع " – تاليف ريمون بودون
- "مفاتيح القرن الواحد والعشرين " – (مطبوعات اليونيسكو)
- "سوسيولوجيا الدين " تأليف دانييل هيرفي ليجييه و جان بول ويلام (المجلس الأعلى للثقافة)

مجتمع الاستهلاك، المجتمع المابعد الصناعى، المجتمع المابعد الحديث، مجتمع المعلومات، إلخ، كل هذه المصطلحات التي ظهرت وكثر استخدامها من قبل مدارس علم الاجتماع المختلفة منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً ماذا تعنى؟ ولماذا تثير هذا النوع من الفضول الفكرى لدى المثقفين بشكل عام ولدى الباحثين والمهتمين بالعلوم الاجتماعية بشكل خاص؟

بداية، لا يهدف هذا الكتاب إلى تناول أو معالجة هذه الأسئلة، لكن يمكن القول أنه يحاول طرحها أو إعادة طرحها بشكل آخر، أى فى علاقتها بموضوع هذا الكتاب، هذا الكتاب هام وخطير من هذه الزاوية، فهو بجانب الموضوع المباشر الذي يتناوله وهو «وسائل الإعلام الحديثة» وبالتحديد هذا الجهاز الهام أى التليفزيون، إلا أنه يفتح الطريق بشكل غير مباشر للتأمل والتفكير فيما هو أبعد من ذلك وتحديداً طبيعة المجتمع الذى نعيش فيه فى الوقت الراهن.



